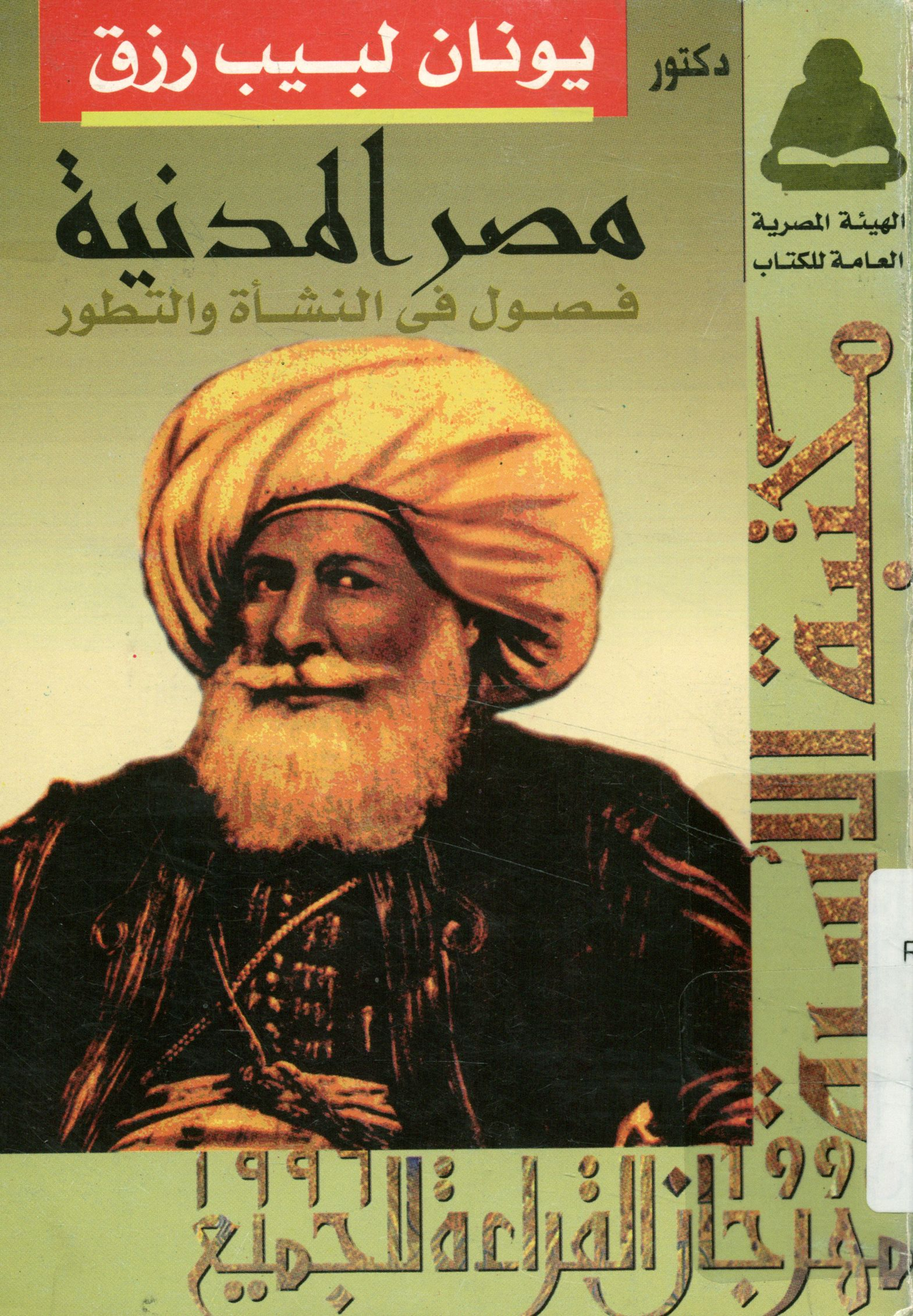
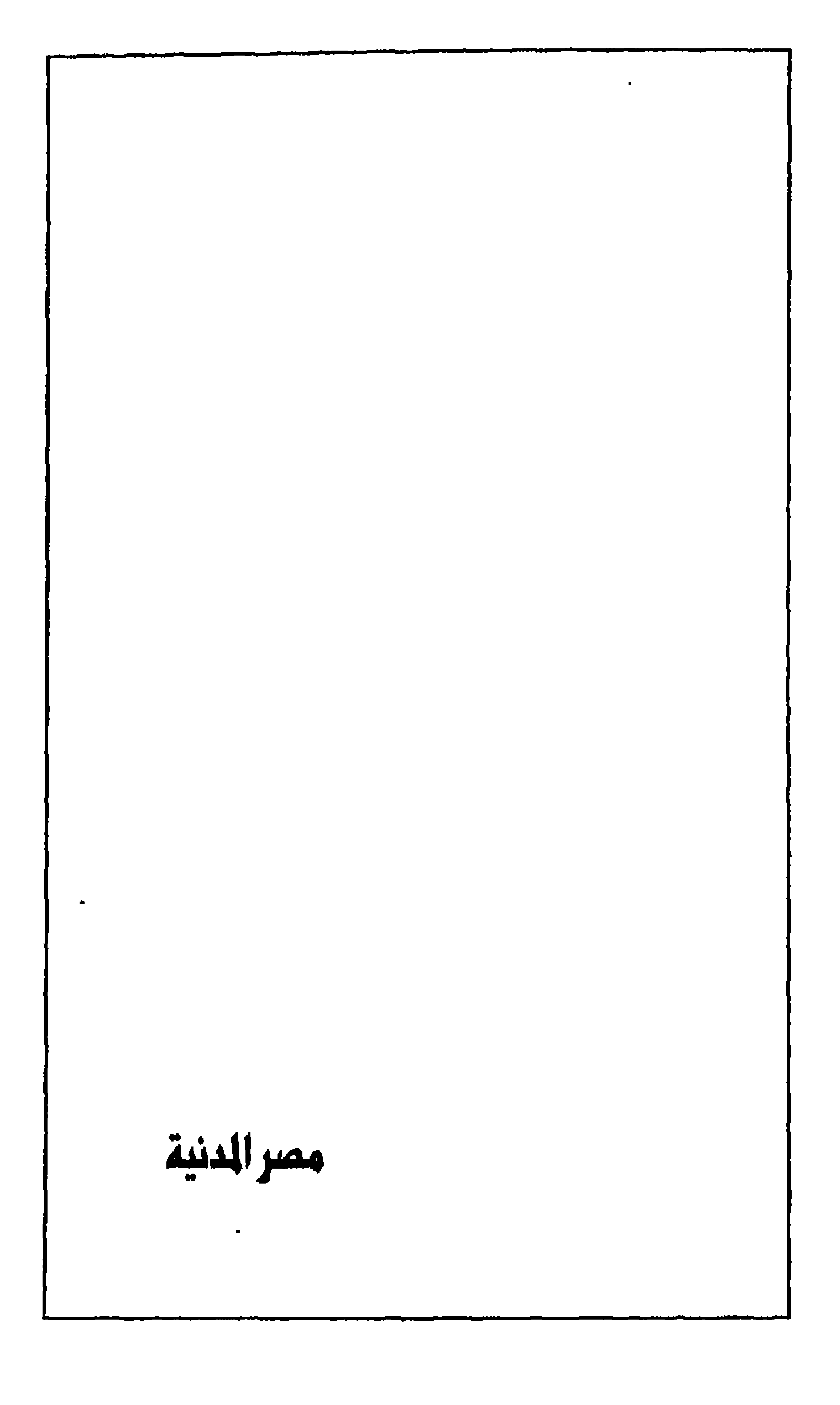

دكتور
يونان لبيب رزق
مصر المدنية
فصول فى النشأة والتطور
الهيئة المصرية
العامة للكتاب
مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦
١٩٩٦


مصر المدنية



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

مصر المدنية
د. يونان لبيب رزق

الغلاف
و الانجاز الطباعي والفنى
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

مصر المدنية

د . يونان لبيب رزق

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة في تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية اطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من اهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن ياخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

وللعام الثالث تواصل مكتبة الأسرة إشعاعها الثقافى حيث تقدم هذا العام ١٧٢ كتاباً فى سبع سلاسل يصدر منها ما يقارب ١٨ مليون نسخة كتاب فى أضخم مشروع ثقافى قومى تشهده مصر الحديثة..

د. سمير سرحان

مقدمة

الإنجازات التى تمت خلال قرنين أو ما يقل قليلا ، تشكل الفترة التى تمثل فى عمر مصر ما يسمى بالتاريخ الحديث ، تتعرض للوأد والعودة الى ماقبلها ... إلى مفردات العصر العثمانى .

وتشيع هذه الفكرة بين صفوف بعض الشباب إلى حد أنها أخذت تطول عديدا من البديهيات التى سادت قناعة بامتداد القرن العشرين انها قد استقرت وانتهى الأمر منذ زمن طويل ..

ولعل النقاش الذى جرى مؤخرا حول السياحة وما اتصل منها بزيارة الآثار يقدم نموذجا صارخا لما اصاب هذه البديهيات ، فبينما أخذت الآثار التى بدأ اكتشافها على نطاق واسع منذ مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر تكتسب بعدا سياسيا كعنصر أساسى فى صناعة الوطنية المصرية وبعدا إنسانيا من خلال ما أصبح مقبولا فى العالم كله من إنه على أرض مصر ولد التاريخ البشرى عادت مرة أخرى فئة من الناس لتنظر إليها باعتبارها " مسوخا وثنية " وهى نفس النظرة التى كانت سائدة فى العصر العثمانى أو قبله ..

وقياسا على هذا النموذج تتعدد الأفكار .. أفكار الإرتداد بالتاريخ إلى ماقبل صناعة المجتمع المدنى فى مصر ، الأمر الذى تطلب شحذ ذاكرة المصريين بمنع وأد التاريخ .. والحقبة القريبة منه التى تصنع حاضرهم ومطلوب ان تكون الأساس لصنع مستقبلهم ! .

من ثم تجئ هذه الفصول التى تتناول محاولة لمتابعة عملية صناعة المجتمع المدنى فى مصر فى بعض من جوانبه ،،

فى الإدارة بقيام الحكومة المركزية التى استمرت سمة اساسية من سمات التاريخ المصرى منذ أن نشأت على أرض الكنانة أول حكومة مركزية فى العالم ، قبل ٦٣٠٠ عاما ، ومن هنا نجح محمد على فيما لم ينجح فيه غيره من الباشوات العثمانيين ، فقد كانت الأرضية ممهدة .

فى الجانب العسكرى بظهور الجيش الوطنى كمؤسسة مصرية الأمر الذى لعب دورا اساسيا فى صناعة العديد من مفردات المجتمع المدنى ، ولا يزال .

فى الثقافة بالإتجاه نحو التعليم الحديث والأخذ بالعلوم الطبيعية والفلسفات الوضعية التى استمرت محورا اساسيا فى صناعة المجتمعات المدنية التى تغلب العقل على النقل .

ثم فى المجتمع بنشوء طبقات جديدة من الرأسمالية وجماعات المثقفين الذين قادوا مصر إلى آفاق جعلت لها هذه المكانة المتميزة فى قلب الوطن العربى وبلدان العالم الثالث على وجه العموم .

وقد انعكست مجمل تلك المتغيرات على النشأة المبكرة لمفهوم " الوطن " فى مصر ، بل وترسيخه ، عنها فى سائر أنحاء المنطقة ، وهو المفهوم الذى يتصور البعض إمكان تغييبه ، وهو المستحيل بعينه

القاهرة ١٩٩٢ د.يونان لبيب رزق

الفصل الأول

دائرة المغالطات

الفصل الأول
دائرة المغالطات

عملية طمس ذاكرة الأمة التي تعرضت لها مصر خلال السنوات الأخيرة تشكل جانبا ، وربما كان اساسيا ومأسويا ، من جوانب الأزمة الراهنة التى يعانى منها المصريون ، خاصة الجيل الذى يفترض أنه سوف يمسك بتقاليد أمور هذه الأمة مع مطلع القرن القادم .

ويبدو حجم الأزمة ، ومن ثم حجم المسئولية التى تقع على كاهل الجيل القائم الآن على هذه الأمور ، من اننا نترك لمصر فى القرن الواحد والعشرين جيلا يتعامل معه بأدوات وأفكار قرون العصور الوسطى بينما تركنا جيل الأجداد العظام (حسن العطار ، رفاعه الطهطاوى ، على مبارك ، محمد عبده ،، الخ) ، وجيل الآباء المتنورين (لطفى السيد ، حسين هيكل ، طه حسين ، عباس العقاد ، سلامة موسى ،، الخ) ونحن نملك الحد الأدنى من أدوات وأفكار تعاملنا من خلالها مع النصف الثانى من القرن العشرين .

وفى تقديرنا أن ثمنا باهظا سوف يتعين على أبناء هذا الجيل دفعه وربما الأجيال التالية ، إذا ماإستمر تقاعسنا عن تبصيره ، جبنا أو مداهنة ،.

وينصرف هذا التبصير إلى جانبين : أولهما : محاولة تصحيح المغالطات التى تفشت عن عمد خلال مايزيد عن العقد والنصف الماضى

، والتى مع عملية ترويجها وصلت الى درجة من المسلمات أو البديهيات بالنسبة لهذا الجيل .

الجانب الثاني : متصل بالتبصير بالتاريخ المصرى ، فما حدث خلال الفترة التي بدأت منذ النصف الثانى من السبعينات قد استهدف مسح مرحلة تاريخية كاملة من العقل المصرى ، هى مرحلة التاريخ الحديث التي بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر .

ويثير الدهشة أن عملية الطمس هذه قد بدأت فى أعقاب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ فبدلا من أن يكون النجاح المصرى ، الذى تم إحرازه فى هذه الحرب وهو أول نجاح عسكرى عربى فى تاريخ الصراع مع اسرائيل ،، بدلا من أن يكون بداية لنهضة شاملة وفرصة للبعث القومى حدث العكس ، مما حدث نتيجة للصراعات الداخلية بين الرئيس الراحل أنور السادات وبين خصومه السياسيين..

فمن ناحية بذل هؤلاء الخصوم ما وسعهم الجهد للتقليل من قيمة العائد الناتج عن حرب أكتوبر ، وبالمقابل فقد حرص الرجل أو الناطقون بإسمه على الطعن بكل الوسائل فى عهد سلفه باعتبار أن هؤلاء الخصوم قد انتموا اساسا للمرحلة الناصرية التى تم تشويهها بكل الوسائل ، وتم بذلك حذف مرحلة من تاريخ مصر ،،

من ناحية أخرى ، ونتيجة لهذا الصراع جاءت استعانة الرئيس السادات بأبناء التيار الدينى ، والذى كان محدودا وقتذاك ، والذين كانوا لا يعادون فحسب الحقبة الناصرية ، بل كانوا يعادون أيضا العهد

الليبرالى الذى سبقها ، أكثر من ذلك كانوا يعادون الدولة المدنية التى كانت قد بدأت فى مصر قبل ذلك بما يزيد عن قرن ونصف .

من ناحية ثالثة كانت عودة الوفد الى الحياة السياسية بعد حكم قضائى مشهور عام ١٩٧٨ ، بدلا من أن تكون مناسبة لإحياء حقبة مجيدة فى التاريخ المصرى ، هى حقبة الحركة الوطنية ، اذا الذى يحدث العكس وعلى خط مستقيم ، فقد تبارى الجميع فى تحطيم كل رموز هذا التاريخ !

فبينما انهمك الوفد من جانب فى تشويه الحقبة الناصرية بكل ما امتلك من وسائل ، فقد انهمكت أجهزة السلطة فى تشويه عصر ما قبل عام ١٩٥٢ ، عصر الباشوات و البكوات ، بكل ما امتلكت من وسائل أيضا ، فضلا عن الاستمرار فى نقد العهد الناصرى ، حتى أصبحت هناك فئة من رجال الإعلام متخصصة فى هذا النوع من الكتابات التى تنقد هذا العصر !

باختصار استمر التاريخ المصرى الحديث الذى يقدمه سائر الفرقاء ، يتلقى اللكمات من الجميع ، الأمر الذى لم يتوقف بعد اغتيال الرئيس السادات .. وهى لكمات أدت الى تشوهات ظاهرة لهذا التاريخ أفقدت المصريين ، أو على الأقل الجيل الجديد منهم الذى استقى أغلب معارفه التاريخية من هؤلاء الفرقاء ايمانهم بما عرفوه عن تاريخ الوطن المصرى خلال الحقبة السابقة ، وكان هناك المتربصون بهذا التاريخ والساعين الى حذف القرنين الأخيرين من ذاكرة المصريين مما أحدث عملية الطمس

الواسعة التى نوهنا عنها فى مستهل هذا الفصل .

ويتصل الجانبان .. طمس الذاكرة التاريخية وترويج المغالطات ، اتصالا وثيقا ،

فالمغالطات تفقد الكثير من أسباب استمرارها مع ذاكرة تاريخية واعية ، وهذه المغالطات تشكل ركنا أساسيا من أركان المناخ الردئ الذى تعانى منه مصر الآن مما يتطلب بذل محاولة لتحريرها وهى محاولة تستحق مهما تطلبت من جهد ومهما عرضت القائمين بها من مخاطر !

ولعل أهم المغالطات التى تعنينا هنا مغالطتان .. الأولى مصدرها الأجهزة الحكومية فى عهد الرئيس السادات ، ولم تقتصر على هذا العهد بل استمرت بعد ذلك ، والمغالطة الثانية روجها الساعون الى اقامة الدولة الدينية فى مصر ، والمغالطتان تشكلان دائرة شريرة مطلوب من مصر اقتحام الصعب والخروج منها !

****

لا فتنة ولا طائفية !

القول بوجود "طائفية" فى مصر فى الربع الأخير من القرن العشرين أمر يجافى كل الحقائق التاريخية المعروفة ، فالطائفية كانت قد اختفت تماما من مصر خلال القرن السابق .(١)

فالطائفية بمعناها (السياسى) كانت قد أخذت فى الاندثار بعد بناء الدولة المركزية في مصر على أيدى محمد على الأمر الذى أخذ معه دور شيوخ الطوائف فى التآكل تماما ، ومع مرور الوقت حدث التحول فى وضعية المصرى من "ابن للطائفة" الى رعية "للحكومة السنية" !

والطائفية بمعناها (الاقتصادى) أخذت فى الاختفاء تبعاً للمعطيات الاقتصادية التى شهدها نفس القرن ، والتى بدأت خلال نصفه الأول أيضا باعادة هيكلة الاقتصاد المصرى من خلال القضاء على "النظام الاقطاعى" على أيدى محمد على وبناء ما عرف "برأسمالية الدولة" التى لم تلبث فى عصر سعيد واسماعيل ان تحولت الى "رأسمالية السوق" أو الر أسمالية بمعناها اللبرالى ومع هذا التحول من جانب ، ودخول الأنماط الاستهلاكية الغربية فى مصر على نطاق واسع.. ومع هذا وذاك كان محتما أن تختفى طوائف الحرف الصناعية والتجارية والخدمية .

والطائفية بمعناها (العرقى) قد أخذت فى الاختفاء بدورها ونتيجة للمتغيرين السابقين .. فبعد أن كان للشوام أو للمغاربة أو غيرهم ممن كانت لهم جالياتهم فى مصر طوائفهم الخاصة فقد انصهر

هؤلاء فى بقية المصريين ولم يعد لهم من بقايا انتمائهم العرقى سوى الاسم ، كأن يكون اسم الأسرة المغربى أو الطرابلسى أو الحلبى وما الى ذلك من أسماء .

يبقى بعد كل ذلك الطائفة بمعناها (الدينى) ، وهو الذى يعنينا هنا بحكم ان استخد ام التعبير الذى بدأ مع أحداث "الزاوية الحمراء" فى مطلع الثمانينات قد قصد به هذا النوع من الطائفية .. الطائفية الدينية !

والطائفية الدينية التى تعنينا تجسدت خلال العصر العثمانى فى حارة النصارى أو حارة اليهود والتى كانت مكانا يعيش فيه أبناء دين معين مثل سائر الحوارى التى يعيش فيها أبناء طائفة مهنية أو عرقية بذاتها ..

وكان محتوما أن تتفكك هذه الحارات الدينية بنفس الوتيرة التى تفككت بها الحارات الأخرى، ولنفس الأسباب ..

ولم يعد النصارى أو غيرهم يعيشون فى حارات خاصة بهم ، وكان ما حدث فى القاهرة والاسكندرية وسائر المدن المصرية من امتداد عمرانى حول مراكزها القديمة فرصة لينهار الشكل القديم من حارات تجمع الطوائف لتقوم أحياء جديدة تضم الجميع .. مسلمون وأقباط وغيرهم ، وهى أحياء انعكست عليها المتغيرات الاجتماعية التى حدثت نتيجة للتحولات الاقتصادية والسياسية أكثر مما أثرت فيها الانتماءات الدينية ، فبينما أصبحت هناك أحياء للطبقات الفقيرة والتى اصطلح

على تسميتها بالأحياء "الشعبية" ، فان أحياء أخرى تمركزت فيها الطبقة الوسطى ، وأحياء أخيرة كانت بمثابة المستقر للأرستقراطية !

أمثلة ذلك فى القاهرة الجمالية وباب الشعرية للنوع الأول وشبرا والعباسية للنوع الثانى والزمالك وجاردن سيتى للنوع الأخير !

وقد استتبع ذلك بروز مجموعة من المظاهر أنهت تماما التمايز الطائفى بين المصريين على أساس دينى ، فلم يتوقف الأمر عند عيشهم فى أحياء مشتركة بل امتد للعيش فى مساكن واحدة فضلا عن التجمع فى المدارس ودواوين الحكومة وسائر الوظائف وأماكن الترفيه !

اذن فالقول "بالطائفية" أمر لا يستقيم مع كل هذه الحقائق ، وهو ما ينطبق على التوصيف بالفتنة ، فان أى مراقب مهما كان مغرضا لا يستطيع توصيف ما يجرى على أرض "المحروسة" بأنها صراع بين المسلمين والأقباط المصريين ، فيما يجرى مثلا بين الصربيين "السلاف الأرثوذكس" وبين الكروات الكاثوليك وأهالى البوسنة والهرسك من المسلمين ، أو فيما كان يجرى حتى وقت قريب بين الموارنة الكاثوليك والدروز ، أو بين المسلمين السنة والمسلمين الشيعة فى لبنان .. ليس هذا أبدا ما يحدث فى أرض الكنانة ، فمصر غير قابلة "للبننة" أو "للبلقنة" !

يؤكد ذلك أن عدد ضحايا أحداث العنف التى تقوم بها الجماعات الدينية فى مصر من المسلمين ، رجال الشرطة أو غيرهم ، أضعاف أعداد هؤلاء الضحايا من الأقباط .

اذن فلا هى طائفية ولا هى فتنة ، ولعل ما دعا الرئيس السادات الى صك هذا التعبير مع أحداث الزاوية الحمراء أنه كان فى سياق ميله الواضح لاستخدام التعبيرات ذات المدلول الدينى ، ومن ثم فان اختياره لهذا التوصيف الدينى لتلك الأحداث يتسق مع اختياره لتوصيفه هو شخصيا ب"الرئيس المؤمن" ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فنعتقد أن الرئيس المصرى السابق عندما صك هذا التعبير انما كان يسعى من ورائه الى تبرير الاجراءات العنيفة التى قرر المضى قدما فى اتخاذها ضد خصومه السياسيين باتهامهم أنهم "دعاة فتنة" فيما وصل الى ذروته فى احداث سبتمبر عام ١٩٨١ .

وعلى الرغم من أن صاحب التعبير قد راح ضحية لأحداث العنف الدينى فقد استمرت أجهزة الاعلام من بعده تتبنى هذا التعبير وتروج له ، وأخذ به بقية المصريين دون تمحيص ، وحتى لحظتنا هذه ، مما يشكل المغالطة الأولى فى الدائرة !

****

هل العلمانيون كفرة !؟

المغالطة الثانية روجت لها الجماعات الدينية ، وهى جماعات رغم تعدد مواقفها الفكرية الا انها تتفق على ادانة مفردات المجتمع المدنى ، وهى ادانة تصل الى حد التكفير .

ويمكن أن تبدأ الادانة من احدى هذه المفردات القابلة للاتفاق والاختلاف مثل الفكرة "العلمانية" ولكنها يمكن أن تصل الى بديهية مفروض انها قد استقرت ولم تصبح محلا للاختلاف ، ناهيك عن المنازعة ، مثل فكرة الوطن !

ويبدو الاتفاق على الادانة رغم تعدد المواقع من حادثة مثل حادثة اغتيال الدكتور فرج فودة ، فالرجل لم يكن ينكر فى أى وقت انه علماني انطلاقا من ادراكه لحقيقة تاريخية بسيطة ان هذه القناعة لم تكن في أى وقت بامتداد التاريخ المصرى الحديث قبل النصف الثانى من السبعينات محلا للإدانة الى حد القتل ، ولكن ما حدث بعد ذلك خاصة خلال الثمانينات جعلها تهمة تصل الى حد التوصيف بالالحاد فيما تقول به أحد مرتكبى جريمة اغتيال الرجل .

هذا الاجماع من الدعاة "للدولة الدينية" على مختلف مواقعهم كما يتطلب رصدا يتطلب تفسيرا ..ففضلا عن بعض المؤسسات الرسمية هناك بعض المؤسسات السياسية الداعية للدولة الدينية .

ومع تعدد المظان التى يمكن منها استقاء موقف هذه المؤسسات تجاه الفكرة العلمانية فنظن أن الصحيفة الناطقة بلسان حزب "العمل"

تمثل أهم هذه المظان ، سواء لأنها تنطق باسم حزب شرعى قائم أو لأنها تفسح صفحاتها لسائر التيارات الداعية لنفس النهج وان كان ليس لها نفس الوجود الشرعى .

ترى أن لهذه الصحيفة فضلا غير منكور فى تلويث صورة العلمانية الى حد انها اقترنت فى النهاية بالكفر والالحاد ، والواضح من المقالات العديدة التى تتضمنها دعوة صريحة الى ادانة أصحاب هذه الفكرة ، فضلا عن نجاحها فى صك تعبيرات الادانة من منطلقات دينية تماما كتوصيف خصومها مرة بالدنيويين مقابل الاخرويين ، والكفار مقابل المسلمين ، والمرتدين مقابل المؤمنين .

ولعل التصريحات التى أطلقها الأستاذ ابراهيم شكرى رئيس حزب العمل أو المستشار مأمون الهضيبى ، المتحدث الرسمى باسم الاخوان عن حادثة اغتيال فرج فودة تنم عن هذه الحقيقة .الأستاذ ابراهيم شكرى استنكر أن تجتزئ الصحف القومية من تصريحه عن الحادثة القسم ألذى أدان فيه عملية الاغتيال.وأضاف أن أحاديث فودة "كانت تحدث بلبلة شديدة لهجومها على أمور خطيرة فى عقائد المسلمين" . (٢)

أما المستشار مأمون الهضيبى فقد اتهم الاعلام الحكومى بأنه وراء الحادث لأنه "يستقطب أشخاصا يسخرون أقلامهم لطعن الدين الاسلامى فى الصميم ، ومهاجمة الشرعية ، ومحاولة تلويث كل الدعاة الاسلاميين بأسلوب تأباه كل الآداب والأخلاق" (٣) .

يبقى بعد ذلك الجماعات السرية الداعية لاقامة الدولة الدينيه والتى تنتهج العنف أسلوبا ، وعلى رأسها بالطبع جماعة الجهاد ، والتى عبر عن موقفها أحد زعمائها ، وهو صفوت عبد الغنى المحبوس على ذمة قضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب ، قال صفوت بالحرف الواحد فى حوار أجرته معه صحيفة الأهالى : "فرج فودة كافر ، والذى اتهمه بالكفر بعض أئمة الاسلام .. لأنه دائما يهاجم الاسلام والمسلمين ويستهزئ بهم وهو علمانى ملحد يجوز قتله" ! (٤)

يعنى ذلك ان كافة فصائل العمل السياسى فى مصر الداعية "للدولة الدينية" قد قرنت بين العلمانية والكفر وانتهى الأمر باحداها إلى الافتاء بقتل الكفرة !

وقبل التدليل على حجم المغالطة على ضوء التاريخ المصرى الذى نزل فيه البعض طمسا فان هناك أمرين جديرين بالتسجيل ..

الأمر الأول أن كثيرين ممن يؤمنون بالفكرة العلمانية قد خضعوا لحملة الارهاب التى توخت ادانة الفكرة وكفوا عن استخدامها أو القول بها وبدا وكأن الكلمة يتوجب حذفها من قواميس اللغة العربية .

الأمر الثانى أن كثيرين لم يعودوا يلقون بالا لما كتبه فلاسفة عظام مثل الدكتور زكى نجيب محمود يشرحون فيها الظروف التى نشأ فيها التعبير وينفون عنه الاتهام الذى الصقه به دعاة الدولة الدينية ، وفى مقالات فى جريدة منتشرة هى "الأهرام" ، ولكن يبدو أن كثيرين لا يقرأون لعلامة فى تاريخ العقل المصرى مثل الدكتور زكى نجيب محمود

وربما إذا قرأوه لا يفهموه ، الأقرب الى قلوبهم وليس عقولهم التى لا يحبون اجهادها ، هم مروجو المغالطات !

غير هذا وذاك كانت "العلمانية" جزءا من التاريخ المصرى الحديث حيث تعامل معها المفكرون والسياسيون بالقبول أحيانا ، وبمحاولة التوفيق مع المجتمع الذى تأثر فى صياغاته الحياتية والفكرية بروافد دينية أحيانا أخرى ، وبرفضه تماما من ناحية ثالثة .. حدث كل هذا دون أن يتهم أى طرف من الأطراف طرفا آخر أو سائر الأطراف بالكفر ويصل الأمر به الى اهدار دمه .وتتدافع الأسماء والتصنيفات فى هذا الصدد ..

لدينا أولا التعريف الموسوعى الذى يقول : "العلمانى هو العالم الذى يتبنى أو يعتنق المذهب العلمانى فى مقابل رجل الدين أو الكهنوتى ، والعلمانيون يحكمون بوجه عام العقل ويرعون المصلحة العامة دون تقيد بنصوص أو طقوس دينية" (٥)

يأتى بعد ذلك تطور الفكرة فى مصر ، فهناك أولاأصحاب "الاتجاه التوفيقى" بين الاتجاه الدينى والاتجاه العلمانى ، وهو ما عبر عنه الشيخ محمد عبده فى محاورتين شهيرتين بينه وبين هانوتووبينه وبين فرح أنطون عبر خلالهما عن ايمانه بأن لا سلطة فى الاسلام سوى سلطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى حد رأيه : "ليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه" . (٦)

وهناك من اصطلح على تسميته " بالعلمانيين المسلمين" ، والذين

ضموا جيلين على الأقل ، جيل قاسم أمين وفتحى زغلول ولطفى السيد ممن عاصروا أستاذهم الشيخ الامام محمد عبده ، والجيل الذى برز خلال العشرينات والذى ضم الدكتور محمد حسين هيكل والشيخ على عبد الرزاق والدكتور طه حسين . (٧)

وهناك من تشددوا فى الاتجاه العلمانى والدعوة الى الفصل الكامل بين الدين والحياة من أمثال اسماعيل مظهر وسلامة موسى والذين نشطوا بشكل ظاهر خلال الثلاثينات خاصة من خلال المجلة التى أصدرها الأخير تحت اسم " المجلة الجديدة" .

ولسنا هنا فى مجال تقديم دراسة عن الحركة العلمانية فى مصر بقدر ما نريد القول أن الفكرة كانت متداولة لفترة طويلة من التاريخ المصرى دون أن تشكل كل هذه المخاوف التى أصبحت تحيط بالفكرة فى السنوات الأخيرة ، وهى جزء من المخاوف التى صنعتها مغالطة من مغالطات الداعين للدولة الدينية .

وفضلا عن جو الارهاب الفكرى الذى تشكله مثل هذه "المغالطات" فان الهدف النهائى منها هو القضاء على " الدولة المدنية" ، الامر الذى يتطلب وقفة .. ليس فحسب مع الدولة المدنية وانما أيضا مع الظروف التاريخية التى أفرزتها ، وهى ظروف بدأت مع بداية التاريخ المصرى الحديث .

****

حواشى الفصل الأول

(١) انظر الفصل الثامن

(٢) الشعب فى ١٩٩٢

(٣) المصدر السابق

(٤) الأهالى فى ١٩٩٢

(٥) دكتور ابراهيم بيومى مدكور (مشرفا) ؛ معجم العلوم الاجتماعية ص ٤٢٥

(٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى ؛ حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث
ص ٦٣-٦٤

(٧) أحمد زكريا الشلق ؛ العلمانية والفكر المصرى الحديث - المجلة التاريخية المصرية
مجلد ٣٠-٣١ ص ٤٤٢-٤٥٢

الفصل الثانى

حكم الكرادلة

الإمبراطوريات المقدسة
عصور الظلام المصرية

الفصل الثانى
حكم الكرادلة !

ليس بلبس المسوح واقامة الطقوس فقط يقوم المجتمع الدينى ، ولكن باحتكار الحقيقة ونصب المحاكمات للمخالفين وارسالهم الى غياهب السجون والقائهم في المحارق والمراجم وبراميل الزيت المغلى ، مما عرفته صفحات كثيبة من تاريخ الانسانية فى العصور الوسطى لمجرد أن استخدم الانسان عقله الذى وهبه اياه الله بشكل مخالف، لما كان يقول به من نصبوا أنفسهم اولياء على عقول الناس وقبل ذلك أرواحهم ، تحت دعوى التفويض الالهى !

واذا كان "مجتمع الكرادلة" برئاسة بابا روما فى العصور الوسطى أشهر من احتكر الحقيقة ، وأضفى على مقولاته ، بل وممارساته ، لونا من القداسة الويل لمن يقترب منها ، فان المجتمعات الدينية في سائر أنحاء العالم قد عرف مؤسسات من هذا اللون ، وان كان بمسميات مختلفة بالطبع يهمنا أولا أسباب تلك الصلاحيات الواسعة التى تمتعت بها تلك المؤسسات ، هذا من ناحية ، ويهمنا منها ثانيا طبيعة هذا المجتمع فى مصر والذى استمر قائما حتى اواخر القرن الثامن عشر ، هذا من ناحية أخرى .

الامبراطوريات المقدسة !

عرفت العصور الوسطى لونا من الامبراطوريات تأسست على الوحدة الدينية ، وأحيانا الوحدة المذهبية،وقد ضمت هذه الامبراطوريات في العادة جنسيات وثقافات عدة .

وبينما تقدم الامبراطورية الرومانية المقدسة النموذج لهذا النوع من الدول في أوربا فان دولة الخلافة تقدم نفس النموذج في العالم الاسلامي ، وكان لقيام مثل هذه الدول أسبابه بل وضروراته التاريخية .الامبراطورية الرومانية المقدسة قامت لتواجه حالة عدم الاستقرار التى نتجت عن موجات الغزو التى قامت بها القبائل الجرمانية ،وهى موجات استمرت تتتالى دون توقف لقرون عديدة .

وكان مطلوبا لمواجهة هذا الوضع صيغة سياسية واقتصادية وفكرية ، وهى الصيغة التى لعبت فيها الكنيسة الكاثوليكية ، أشهر المؤسسات الدينية التى لعبت دورا فى أوربا ، بل ربما فى تاريخ الانسانية ..

كان أول ما قامت به فى هذا الصدد تنصير القبائل الوثنية التى ما فتئت تفد الى مناطق وسط وجنوب أوربا من الشمال ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر بايجاد الرابطة بين الشعوب والأمم التى استقرت فى تلك المناطق بعد أن تمكنت من غزوها ، ومن تلك الشعوب والأمم قامت الامبراطورية الرومانية المقدسة التى صنعت الكنيسة روابطها الأساسية .ويعلم المؤرخون أن هذه الامبراطورية قد قامت على ركيزتين ، العنصر

العسكرى من الأشراف والفرسان القادر على حماية "المؤمنين" من غارات القبائل الوثنية المتجددة ، والكنيسة الكاثوليكية ، بكاتدرائياتها وأديرتها ومدارسها ورهبانها المنتشرين فى كل مكان . وقد استمر التحالف قائما بين هاتين المؤسستين بامتداد تلك العصور ، وهو تحالف وصل فى كثير من الأوقات الى انخراط أعداد من أبناء طبقة النبلاء فى صفوف رجال الدين ، خاصة كبارهم !

يعلمون أيضا أن دور كنيسة روما السياسى والفكرى قد تزايد خلال تلك العصور وفى اتجاهات عديدة ..

فى اتجاه الحكم فان أى حاكم مهما علت مكانته (الامبراطور) أو قلت (صغار الاقطاعيين) كان يستمد شرعيته من حق التفويض الالهى الذى تخوله إياه الكنيسة ممثلة فى أحد رجالها الكبار ، البابا نفسه أو الكاردينال الذى يمثله ، وهو الحق الذى حصل عليه هؤلاء من القديس بطرس مؤسس كنيسة روما ، والذى حصل عليه بدوره من السيد المسيح .من ثم اكتسب حفل التتويج أهمية كبرى فى ولاية حكام أوربا فى العصور الوسطى ، فقد كان حفلا دينيا بالأساس يترتب عليه شرعية المحتفل به ، وهى شرعية دينية قبل أى شئ آخر .

والمعلوم أن فكرة التفويض الالهى التى تلازم الدول الدينية على خصومة مع الفكرة الديموقراطية التى قامت على أنقاضها فى العصور الحديثة ، فالفكرة الأولى تخلق بالضرورة حكاما مستبدين لسبب بسيط وهو أن الحاكم الذى يتمتع بهذا التفويض لا يخضع لأى لون من الرقابة

شعبية أو غيرها ويتعاون فى العادة مع رجال الدين لتأويل النصوص الدينية على نحو يخدم أقصى استمتاع بالسلطة !

فى اتجاه السياسة استمرت الكنيسة عنصرا شديد التأثير فى صنع أخطر أحداثها ،ويقدم الصراع الدامى الذى عرف بالحروب الصليبية ، والذى استمر لأكثر من قرنين ، بين عامى ١٠٩٦ عام قيام الحملة الأولى وعام ١٢١٧ ، عام فشل الحملة على دمياط .. يقدم نموذجا على تأثير الفاتيكان على السياسة ، فان الحملات الصليبية قد بدأت بعد المؤتمر الشهير الذى دعا اليه البابا أوربان الثانى فى كليرمون والذى دعا فيه الى تخليص الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين .

فى اتجاه الفكر هيمنت الكنيسة تماما خلال تلك العصور على العقل الأوربى من خلال مؤسساتها .. الكنائس : حيث كان يتلقى الطفل الأوربى معارفه الأولى ، الأديرة : حيث كانت تجرى عمليات التأليف واصدار الكتب أو بالأصح المخطوطات والتى كانت فى عمومها تتناول موضوعات دينية ، الجامعات : التى أخذت فى النشوء فى نهاية العصور الوسطى ، وقد جاءت نشأتها أيضا على أسس دينية حتى ان بعض من كان ينبغ من أساتذ تها كان ينال لقب "القديس" مثل القديس "توما الاكوينى" مؤسس "الفكر المدرسى" فى تلك الجامعات ، وبالطبع كان مجمع الكرادلة هو الذى يمنح تلك الألقاب !

بيد أن الذى كان يملك أن يمنح لقب "القديس" هو نفسه الذى كان يملك أن يصم الناس بالشياطين أو الكفرة ويدخلهم الى النعيم أو يرسلهم

الى الجحيم ، وهو الذى يبحث فى سرائرهم أمام "محاكم التفتيش" ثم يصدر ضدهم القرارات ، وكان أشهرها قرار الحرمان من رحمة الكنيسة التى هى فيما ارتأوه رحمة الله !

وبالطبع كانت عواقب الادانة وخيمة فى كثير من الأحوال حتى فى صفوف رجال الدين الذين يفكرون خارج ما اختطه لهم مجلس الكرادلة ، ولعل النهاية المأسوية للراهب الايطالى " جيرولامو سافونارولا" الذى أحرقت جثته فى أحد ميادين فلورنسا يوم ٢٣ مايو عام ١٤٩٨ تقدم مجرد نموذج بسيط على هذه العواقب !

وفى مثل هذا الجو فى العادة تنمو الخرافة ويتم القبول بالمسلمات بحكم أنه الطريق الأسلم للنجاة من العواقب وتتعطل أهم وظيفة للعقل .. وظيفة الإبداع !

ومجتمع "القبول بالمسلمات" هو مجتمع " بطريركى" بالضرورة ، ومصدر التعبير الكلمة اللاتينية pater أى أب.بمعنى آخر يكون مجتمعا أبويا ،وهو ليس كذلك بالنسبة لرجال الدين فحسب بل لكل الكبار فى الأسرة والحرفة وأى مكان يعيش فيه أوربيو العصورالوسطى .ويكتسب الآباء فى هذا النوع من المجتمعات قداسة بالغة تجعل الخروج عن مألوفهم ضربا من المغامرة وركوب الصعب الذى قد يورد صاحبه مورد التهلكة ، خاصة اذا كانوا من آباء الكنيسة ، مهما حدث لهذا المألوف من تآكل !

وتتدنى قيمة "الانسان" فى هذا المجتمع الى حد عدم الاعتداد

بكل ما يعنيه فى الحياة الدنيا بدءا من مأكله المتواضع ومرورا بسكنه أو ملبسه الخشنين وانتهاء بحياته نفسها ، فان أي قدر من المتعة الدنيوية ، مهما كانت بريئة ، كانت فى نظر السلطات الكنسية يمكن أن تقود صاحبها الى جهنم .

فضلا عن ذلك تسود التفسيرات الغيبية لكل حدث مهما بلغت قيمته على مستوى المجتمعات القائمة ، فاذا حاقت هزيمة بأحد الأطراف فلأنه خرج على تعاليم الكنيسة ولم يعمل بصحيح الدين ، واذا زار وباء بعض بلدان القارة ، مما كان يحدث بشكل منتظم بالنسبة للطاعون ، فان وراء ذلك فساد الناس أو رغبة إلهية بالتعجيل بلقائهم ، ووصل الأمر الى الكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والفياضانات والزلازل التى كان يتصايح رجال الدين فى أعقاب كل كارثة محذرين من "الغضب الآلهى" وهلم جرا !

غير أن ما أخذ فى الحدوث خلال تلك الفترة التى اصطلح على تسميتها "بعصر النهضة الأوربية" كان قد أخذ يهز بشدة كل الركائز التى كان يقوم عليها حكم الكرادلة فى العصور الوسطى سياسيا ببداية ظهور "الدولة القومية" التى رفضت وصاية الكرادلة ، واجتماعيا بظهور وتنامى الطبقة البورجوازية التى عارضت الطبقة الاقطاعية بكل مفرداتها وقيمها ، وفكريا بظهور الحركة الانسانية humanism التى قالت أن الدنيا لها قيمة لا تقل بحال عن الآخرة وانه ليس ثمة تعارض بين الاهتمام بالحياتين ، الدنيا والآخرة ، ورفض هؤلاء فكرة أن

المال "أصل كل الشرور" كما كان يرى رجال الدين ، وقالوا انه كما يمكن أن يستخدم فى صناعة الشر فإنه يمكن أن يستخدم فى صناعة الخير ، وأن الشر أن يبقى الانسان راسفا فى فقره دون أن يسعى الى تغيير وضعه!

عموما فان حكم الكرادلة الذى وصل الى أسوأ أوضاعه فيما عرف بالعصور الوسطى المتأخرة وكانت أسوأ فترات العصور الوسطى حتى أن المؤرخين الأوربيين قد أسموها فيما بعد "العصور المظلمة" ، فانه دائما ما يصحب الجمود تزايد المحاولة الانسانية لكسره !

دولة الخلافة الاسلامية اختلفت عن الامبراطوية الرومانية المقدسة فى أوربا فى بعض المناحى لعل أهمها عدم وجود مؤسسة مثل مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية وان بقى العسكريون ورجال الدين يلعبون دورا أساسيا فيها خاصة بدءا مما عرف بالعصر العباسى الثانى الذى يؤرخ له بعهد الخليفة المتوكل الذى بدأ عام ٨٤٦ .(١)

فبدءا من هذا العصر أصبح للعسكريين خاصة من العنصر التركى قصب الغلبة فى دولة الخلافة الاسلامية وكان منطقيا أن يستعين هؤلاء بعلماء الدين لإضفاء الشرعية على تصرفاتهم سواء حيال الشعوب التى حكموها أو حيال خصومهم الذين كانوا ينازعوهم السلطة .وتتوارد عدة ملاحظات هنا ؛ أولها : أن العنصر العسكرى فى دولة الخلافة استمر يقوم بفريضة دينية هى فريضة "الجهاد" سواء بحماية ثغور دار الاسلام ، أو بخوض غمار القتال فى دار الحرب والتى تركزت

أساسا فى أراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، بيزنطية ، بعد أن كانت فارس قد انتهى أمرها فى عهد الخلفاء الراشدين ، والثانية : أن العنصر العسكرى فى دولة الخلافة لم يكن عنصرا محليا ، ولما كان هؤلاء قد خلقوا لونا من الاقتصاد تأكدت ملامحه فى مصر فى العهد المملوكى والعثمانى عرف بالاقطاع العسكرى ، فان هذا اللون من الاقطاع لم يؤت بنتائج شبيهة بتلك التى جاء بها النظام الاقطاعى فى أوربا ، فقد أدى هذا النظام الى نزح الفائض من الثروة أولا بأول مما أضعف كثيرا من امكانات تطوير البلدان الاسلامية .(٢)

الملاحظة الثالثة ربما تكون أهم هذه الملاحظات فاذا كانت أوربا قد عرفت ما سمى بالعصور الوسطى المتأخرة ففى تقديرنا ان هذا التوصيف ينطبق أكثر ما ينطبق على العصر العثمانى فى تاريخ دولة الخلافة الاسلامية ، ويعنينا من هذه الملاحظة ما اتصل بمصر .

عصور الظلام المصرية !

رغم ما شهدته السنوات الأخيرة من محاولة قوية للدفاع عن العصر العثمانى ، وهو العصر الذى بدأ فى مصر والشام فى مطلع القرن السادس عشر (١٥١٦-١٥١٧) على أنقاض الدولة المملوكية ، فان هذا الدفاع الذى تحوطه الكثير من الاعتبارات السياسية يصبح ضعيفا إذا ما أخضع للمعايير التاريخية .

وأهم ما فى هذه المعايير معيار الحركة التاريخية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية - الاجتماعية والفكرية ..

وأول ما يلاحظ فى هذا الشأن تعاظم السلطة الدينية فى هذا العصر على نحو غير مسبوق فى عهود الدول التى عرفتها مصر بعد أن أصبح لها قدر من الوجود المتمايز عن دولة الخلافة .

فباستثناء عهد الدولة الفاطمية استمر للعنصر العسكرى الغلبة فى حكم مصر بعيدا عن تأثيرات دولة الخلافة فى بغداد التى أخذت تذوى حتى انتهى الأمر بالخليفة العباسى الى اللجوء للقاهرة مما أضعف كثيرا من السلطة الدينية التى كان يجسدها ، وأصبح مجرد رمز مما تم خلال العصر المملوكى الذى فى تقدير المؤرخين من أزهى عصور مصر الاسلامية .

فى عصر الدولة العثمانية عادت السلطة الدينية للاتحاد مع السلطة العسكرية بعد أن نقل السلطان سليم مقر الخلافة الى استنبول وجعلها فى آل عثمان . وقد نتج عن ذلك أن كان أبرز المؤسسات القائمة على حكم البلاد المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية ..

المؤسسة الأولى كانت من جانب تتشكل من عناصر غريبة عن البلاد سواء فرق الحامية العسكرية التركية السبع المعروفة باسم الوجاقات أو المماليك الذين أنخرطوا فيما عرف بالبيوت التى نسبت الى مؤسسيها وكان بعضها من البيوت الكبار والآخر من الصغار !

وكانت العلاقات داخل هذه المؤسسة بحكم تكويناتها المتناقضة تحفل بالصراعات التى كثيرا ما كانت تتحول الى قتال فى شوارع القاهرة أو غيرها من شوارع عواصم الأقاليم المصرية .(٣) فضلا عن

ذلك فان أعمال العنف التى كان يقوم بها أبناء هذه المؤسسة كثيرا ما كانت تنصرف الى المصريين من أبناء طوائف الحرف فى المدن أو من أبناء القرى فى الريف مما كانت تتحول فى أوقات كثيرة الى أعمال نهب واسعة الأمر الذى يعبر عنه الشيخ الجبرتى فى المحادثة التى دارت بين مسئول الأمن العثمانى فى القاهرة الذى كان يطالب أحد أمراء المماليك برد منهوبات سلبها من احدى الطوائف فرد الأخير قائلا : "كلنا نهابون أنت تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب كذلك" ! (٤)

وفى الريف كانوا يهجمون على الأسواق الاسبوعية لنهب السلع وينتشرون فى المزروعات بخيولهم وينزلون على الأهالى مطالبين "بتجهيز مختلف ألوان المآكل والمشارب" ، (٥)

وفى اطار تفاقم هذه الصراعات بحث أبناء هذه المؤسسة عن الشرعية ووجدوها عند رجال المؤسسة الأخرى .. المؤسسة الدينية .

وتعبير المؤسسة الدينية أو الهيئة الاسلامية the moslem institution ليس من عندياتنا ولكن وضعه الباحثون فى تاريخ مصر العثمانية ، وقد رآها هؤلاء من أقوى المؤسسات التى تلى مباشرة فى أهميتها المؤسسة العسكرية .

- كان على رأس هذه المؤسسة قاضى عسكر أو قاضى القضاة والذى كان من ألقابه لقب "شيخ الاسلام" ، ويبدو الطابع "الكاردينالى" لصاحب هذا المنصب من فرامانات السلطان التى كان يخاطبه فيها والتى جاء توصيفه فى أحدها : "أقضى قضاة المسلمين ، أولى ولاة

الموحدين ، معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشريعة والدين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين .. زيدت فضائله" ! (٦)

وكان الرجل يرأس جهازا معقدا من القضاة سواء في "مصر المحروسة" أو في الأقاليم ..

الجماعة الثانية من الهيئة الاسلامية تشكلت من المفتين الذين لعبوا دورا مهما في الصراع بين أطراف السلطة ، خاصة في عمليات عزل الباشوات العثمانيين التي تكررت من جانب المماليك في القرن الثامن عشر ، فكان هؤلاء يلجأون الى المفتين ويقدمون لهم فتوى على شكل أسئلة يعددون فيها مساوئ الباشا ويطلبون من المفتي الجواب ، وغالبا ما كانت تصدر لهم الفتوى "حسب مرادهم" على حد تعبير الجبرتي .(٧)

ويهمنا في هذا الصدد لرسم الصورة والتي تتسم بقرب شديد بصورة ما كان حادثا في أوربا في "العصور الوسطى المتأخرة" قبيل عصر النهضة التركيز على جانبين : التحالف الذي كان قائما بين المؤسستين والذي أضفى على أعمال المؤسسة الأولى شرعية كانت تبحث عنها ، ثم الدور السلبي للمؤسسة الثانية على الفكر المصري والذي أخر دخول المصريين للعصور الحديثة ، وهو دخول كان متوقعا في عصر المماليك .

وينبغي هنا أن نفرق بين علماء الأزهر الذين كان لهم على العموم مكانة خاصة بين العامة بحكم الدور الذي كانوا يقومون به بين الرعية

والحكام لدرء ظلم الأولين عن الآخرين ، وبين رجال المؤسسة الدينية .. القضاة والمفتين ونقباء الأشراف .

تجمع المصادر على أن هؤلاء قد تمتعوا من خلال الدور الذى قاموا به فى خدمة المؤسسة العسكرية بكثير من المزايا لعل أهمه التنظر على الأوقاف الواسعة والحصول على التزامات (اقطاعيات بلغة العصر) عديدة مما كان محل انتقاد من جانب الجبرتى وغيره من المعاصرين .

يلاحظ الجبرتى أن هؤلاء قد قطنوا فى أحياء القاهرة الراقية مثل الأزبكية وبركة الفيل ، ويقول عن أحدهم أنه "انشغل بحبه للمال والدنيا" ويقول عن آخر انه "أفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية واقتناء كل مرغوب ونفيس وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والخصيان والتأنق فى المأكل والمشرب" ! (٨)

وليس من شك ان هذا التحالف قد منح رجال الدين الفرصة للعب دور هام فى السياسة المصرية وهو دور ظل يتعاظم مع تفاقم الصراعات خلال القرن الثامن عشر ووصل الى ذروته لدى قدوم الحملة الفرنسية للبلاد وفى أعقابها حين أصبح رجال الدين فى مصر يشكلون القوة السياسية الأولى .

نأتى أخيرا للحديث عن الدور السلبى لعلماء الدين فى العصر العثمانى على مسيرة الفكر المصرى ونتخذ فى هذا أهم المؤسسات العلمية فى مصر فى ذلك العصر .. الأزهر الشريف ، وفى قضية من

أهم القضايا هى قضية مكانة العلوم العقلية فيه .

يرى المؤرخون أن هذه العلوم قد اكتسبت مكانة فى العصر المملوكى مما جاء فى شهادة جلال الدين السيوطى الذى تحدث عن أنه رتب للتدريس فى جامع ابن طولون "دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات" .

بالمقابل فهم يرون أن هذه العلوم قد انحطت انحطاطا شديدا فى العصر العثمانى ، وقد انتشر بين علماء الأزهر القول بتحريم دراسة العلوم العقلية وانهم نسبوا الكفر لمن يطالعها ويعتنى بها !

ويبدو مدى رفض المؤسسات التعليمية الدينية وعلى رأسها الأزهر من القبول بتدريس العلوم العقلية ان بعض المشايخ المتنورين كانوا يقومون بتدريسها فى بيوتهم مثل الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ المشهور عبد الرحمن الذى كان يقوم بتدريس الفلك والرياضيات فى بيته فيما اعترف به ابنه.ومثل الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة الطهطاوى الذى كان يقوم بتدريس الجغرافيا والتاريخ فى بيته أيضا (٩)

ولم يكن الأقباط الذين يتعلمون فى كتاتيب خاصة بهم يختلفون كثيرًا عن طابع التعليم فى المؤسسات الدينية الاسلامية ، كان الاختلاف الوحيد هو تدريس الانجيل بدلا من القرآن فضلا عن دراسة الرياضيات التقليدية والتى كانت معروفة عند المصريين منذ الأزمنة القديمة مثل حساب المساحة والموازين والمكاييل مما استخدموه بعد ذلك فى حياتهم العملية .

باختصار فقد كان إعمال العقل من المحظورات فى العصر العثمانى وباسم الدين !

وكالعادة فى تاريخ البشرية عندما تصل الأمور الى هذا الحد وتتحول الوظيفة الاجتماعية للدين من أداة تطور وتنوير الى أداة لتحقيق مصالح فئات بعينها يصبح مطلوبا وبالحاح احداث التغيير وهو الأمر الذى لم يتأخر كثيرا ، مطلوبا أن يرحل الكرادلة !

****

حواشى الفصل الثانى

■■■■■■■■■■

(١) د.سعيد عبد الفتاح عاشور : التعارف الأول بين العرب والترك (العلاقات العربية - التركية من منظور عربى) ص ٤٥

(٢) هاملتون جب ، هارولد بوين : المجتمع الاسلامى والغرب (ترجمة د.أحمد عبد الرحيم مصطفى) ص ٨٩ - ٩١

(٣) د.عراقى يوسف محمد : الوجود العثمانى المملوكى فى مصر الفصلان السادس والسابع

(٤) عبد الرحمن الرافعي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٢

(٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣٣

(٦) د.ليلى عبد اللطيف أحمد : الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ص ٢٤٨

(٧) الجبرتى : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧

(٨) د.ليلى عبد اللطيف أحمد : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ص ٢٧

(٩) د.عبد الله محمد عزباوى : الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن ص ٤٦١

الفصل الثالث

صدمة الخروج من الكهف

الخروج الأوربى

تلقى الصدمة

الفصل الثالث
صدمة الخروج من الكهف !

كان الأستاذ توفيق الحكيم مبدعا فى مسرحيته الشهيرة "أهل الكهف" وهو يتابع تفاصيل الصدمة .. صدمة متغيرات ثلاثمائة عاما أو يزيد ، وهى نفس المدة تقريبا التى عاشها المجتمع المصرى فى ظل الدولة العثمانية قبل أن يواجهوا الفرنسيين ممثلين لاحتلال أجنبى صحيح ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت ممثلين للدولة المدنية ، ذلكم من خلال الحملة التى أتت الى مصر عام ١٧٩٨ والتى صنعت كل ممارساتها جو الصدمة .. صدمة اللقاء بأناس من خارج الكهف !

ولعل المشكلة التى سببها قدوم الفرنسيين الى مصر كممثلين للدولة المدنية تتمثل فى ان ما ترتب عليها (إخراج) للمصريين الى هذا النوع من الدول وليس (خروجهم) ، والفرق كبير ..

فبينما يكون "الخروج" نهائيا لأنه يكون قد تم كمحصلة لتفاعلات تاريخية طويلة لا رجوع فيها فان "الإخراج" كثيرا ما تصيبه الانتكاسات بحكم انه يكون فى العادة قد تم بشكل متعجل ، هذا من ناحية ،، وبحكم أنه من ناحية ، أخرى يكون قد تم تقليدا للمجتمعات التى سبقت فى مجال "المدنية" دون أن يكون قد مد جذوره بشكل كاف فى المجتمعات التى أخذت به ، مما يعرضه لهبات الريح ، ولكنها على أى الأحوال يصعب عليها اقتلاعه ، لسبب بسيط ، هو استحالة دوران

عجلة التاريخ الى الخلف مهما بلغت قوة الرياح القادمة من الماضى ، لأن الطبيعى أن تدخل الريح الكهف ولا تخرج منه !

يبدو الفرق أيضا فى مفهوم المدنية ، فبينما تعنى الكلمة فى منطوقها الانجليزى Urbanization الانتقال من طور المجتمع الريفى بكل قيمه وتقاليده وعلاقاته الى المجتمع المدنى فان الكلمة فى منطوقها العربى كانت تعنى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ، ولعل ذلك قدم لأعداء المجتمع المدنى مجالات الطعن فيه ، وهى المجالات التى تراوحت بين التوصيف بالدنيوية والاتهام بالتغريب .

فضلا عن ذلك فان "الخروج" يتم عادة بشكل متأن لا تحدث معه "الصدمة" ، أما بالنسبة للإخراج فيختلف الأمر ..

الخروج الأوربى :

بين بدايات الخروج الأوربى من الكهف وبين اللقاء مع المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر انقضى نحو خمسة قرون كان قد اكتمل للأوربيين خلالها ، يمثلهم الفرنسيون هذه المرة .. كان قد اكتمل لهم اسباب الخروج .

اقتصاديا كانت قد انهارت الركائز الأساسية لمجتمع العصور الوسطى ، النظام الاقطاعى بكل مقوماته .. التبادل والنمط الاستهلاكى والاكتفاء الذاتى ..

وحلت ركائز جديدة لاقتصاد جديد هو الاقتصاد الرأسمالى الذى يقوم على البيع والشراء والأجر ، وهى فى مجموعها عمليات تتطلب

المال ، ولم يعد تبادل السلع أو الخدمات ليفى باحتياجات هذا الاقتصاد لم يعد أيضا النمط الاستهلاكى ، أو نمط من اليد الى الفم" صالحا مع النظام الجديد ، فان الدورة الاقتصادية الرأسمالية ذات الطابع الحلزونى ، أى الطابع الذى يقوم على النمو المستمر نتيجة للتفاعل بين عمليتى الاستثمار والتراكم ، تتباين تماما مع الدورة الاقتصادية الاقطاعية التى كانت تلف فى دائرة شبه مغلقة .

ولم يعد سوق القرية أو المدينة الذى يرمز للاكتفاء الذاتى قادرا على أن يتسع للدورة الرأسمالية التى تتنامى عاما وراء آخر ، وتزايدت الحاجة الى توسيع السوق ، ولم تكن ثمة غرابة مع مثل هذه الحاجة ما حدث من البحث عن "السوق الوطنى" بديلا عن السوق الاقطاعى ، فضلا عن الاندفاع عبر المياه المحيطة فيما عرف بحركة الكشوف الجغرافية التى اتسعت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. (١)

وكان محتوما أن يترتب على هذه التغييرات الاقتصادية تغييرات اجتماعية .. صحيح أن الأمر تطلب وقتا طويلا لتغيير البنية والقيم الاجتماعية التى سادت أوربا بامتداد العصور الوسطى الا أن التغيير كان قد استوى تماما قبل القدوم الفرنسى الى مصر ، تمت آخر مراحل هذه التسوية على أيدى الثورة الفرنسية التى أرسلت برجالها الى الشرق .

ويرى المؤرخون الأوربيون أن هذه الثورة كانت بمثابة الاعلان عن السقوط النهائى للأرستقراطية الاقطاعية وحلول الطبقة الوسطى من

أصحاب رؤوس الأموال أو من اصطلح على تسميتهم بطبقة البورجوازية Bourgeoisie، وهى تسمية فرنسية شاعت بعد ذلك ليستخدمها الأوربيون ثم بقية البشر محلها . (٢)

من أهم المتغيرات الاجتماعية التى تعنينا هنا أيضا ما حدث نتيجة لتعاظم أهمية الرأسمال من تعاظم "المجتمع المدنى" فى نفس الوقت ، فالمدينة هى البيئة الطبيعية للمجتمع الرأسمالى بحكم انها مركز النشاط التجارى والصناعى والمالى .

ومع هذه المتغيرات كان محتوما أن تحل قيم اجتماعية مدنية محل القيم الاجتماعية الاقطاعية التى كانت سائدة من قبل والتى أخذت تتآكل وازدادت أهمية المال ولم يعد مجلبة للشرور كما كان الحال من قبل ، وازدادت الرغبة فى الاستمتاع بمباهج الحياة مما كان محرما فى عصور الظلام ، فضلا عن ذلك فقد أخذت تسود القيم الانتاجية فى الحياة اليومية بديلا عن القيم الاستهلاكية التى كانت سائدة من قبل ، باختصار فقد أصبح الناس أكثر "دنيوية" بلغة أهل العصور الوسطى وقتذاك .

وكان محتوما أن تنعكس هذه التغييرات الاقتصادية الاجتماعية على الوضعية السياسية ، فقد أدت الحاجة الى "السوق الوطنية" الى سرعة الاتجاه نحو الدولة الملكية مما أدى الى نشوء تحالف بين البورجوازية والملوك لتمكين هؤلاء الأخيرين من تشديد قبضتهم وانهاء أسباب التفكك السياسي الذى كان عائقا أمام حرية حركة رؤوس

أموالهم .

ومع تعاظم نفوذ الملوك أخذ نمط جديد من الدول يحل محل نمط دول العصور الوسطى وهو "الدولة المركزية" التى جسدها الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا (١٦٦٠-١٧١٥) وصاحب المقولة الشهيرة "أنا الدولة L' ETAT C' EST MOI" تعبيرا عن هذه الحقيقة . (٣)

مع هذا التعاظم أيضا لم يعد مسموحا ليس للاقطاعيين المشاركة فى السلطة وانما أيضا المؤسسة التى استمرت مصدرا لهذه السلطة بامتداد العصور الوسطى .. المؤسسة الدينية ممثلة فى كنيسة روما ، فقد ترتب على نشوء الدولة القومية تنامى روح الانتماء الوطنى مما ترتب عليه أن أصبح ينظر إلى البابا باعتباره حاكما أجنبيا لا ينبغى أن يتدخل فى شئون أوطانهم ، ونتج عن ذلك أن أخذ نفوذ المؤسسة الدينية فى الانحسار ليحل محله نفوذ السلطة المدنية ممثلة فى الملوك .

تبقى المتغيرات الفكرية التى سارت جنبا الى جنب مع المتغيرات السابقة والتى خرجت أوربا من خلالها من أفكار وقيم العصور الوسطى ليحل محلها الأفكار الجديدة المدنية ، وهناك ثلاث علامات فارقة على طريق هذا التغير ..

*"الحركة الانسانية" كانت العلامة رقم (١) ، وعندما تعرف المعاجم هذه الحركة تقول بالحرف الواحد أنها "طريقة من التفكير تتمحور

حول مصالح الانسان وتطوره في حياته الدنيا" ، وهي عكس طريقة التفكير السابقة التي كانت سائدة خلال العصور السابقة التي كانت تؤثم مثل هذا الاتجاه من التفكير . (٤)

ولاشك انه قد ترتب على شيوع هذا النوع من التفكير أن أصبحت حياة الانسان الدنيا قيمة في حد ذاتها مما دعا المجتمعات الأوربية الى توفير سائر الكفالات لحفظ هذه الحياة ، وسقطت مع مرور الوقت القيمة التي كانت سائدة من قبل بالاستهانة بالحياة الدنيا للبشر ، ولم يعد الحفاظ على هذه الحياة يمثل تكالبا على تلك الحياة فيما كان شائعا من قبل .

* القرنان السادس عشر والسابع عشر شهدا ما عرفا بحركة الاصلاح الديني ، وهي حركة استهدفت في النهاية التعبير عن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تجري وقتذاك ، فقد حدث صدامات بين المجتمع المدني الجديد وبين الفاتيكان الذي تصور إمكان الحفاظ على الوضع الذي كان قائما ، وهو تصور ثبتت استحالته .

والواقع أن المصلحين الدينيين بدءا من "لوثر" وحتى "كلفن" لم يفعلوا أكثر من أنهم قدموا صورة جديدة للمسيحية تتفق مع المتغيرات التي حدثت ، بمعنى آخر فبينما أراد الفاتيكان وقف حركة التغيير بما يناسب الأوضاع القديمة ، وهو الأمر المستحيل تاريخيا ، فان هؤلاء قد تحركوا مع العجلة .. عجلة التاريخ .

غيـر أنه من أهم الملاحظات التى ينبـغى رصـدها هنا انه باسم الدين شهد بلد مثل فرنسا أكثر الحروب الأهلية ضراوة هى المعروفة بالحروب الدينية استمرت أكثر من ربع قرن (٢٧ عاما) ، وهى الحروب التي دارت بين دعاة الاصلاح وبين مناصري الكنيسة الكاثوليكية .

عموما لم تنته هذه الحروب الا وكانت المؤسسة الدينية ممثلة فى كنيسة روما قد فقدت نفوذها السياسى وجانبا كبيرا من تأثيرها الفكرى وهو التأثير الذى شحب كثيرا خلال القرن التالى..القرن الثامن عشر(٥)

*فقد شهد هذا القرن ما عرف بالحركة العقلانية Rationalis ، وهى الحركة التى نفضت بقية المقولات الغيبية التي كانت سائدة خلال العصور الوسطى وأصبح العقل مصدر المعرفة الرئيسى الذى اعتمد المنهج السببى لتفسير أية ظاهرة، وهو حتي ان عجز أحيانا عن العثور على السبب فقد كان يعلم أن القصور فيه وليس فى المنهج .(٦)

ومع استكمال التوصل الى المنهج العلمى فيما حدث خلال القرن الثامن عشر كان الأوربيون قد خرجوا تماما من الكهف ، وفى هذا الوقت ، أواخر ذلك القرن على وجه التحديد جاء الفرنسيون الى مصر لتحدث تلك المواجهة الفريدة بين أبناء المجتمع المدنى وبين أولئك الذين كانوا لا زالوا قابعين فى الكهف !

تلقى الصدمة !

كان المؤرخ البريطانى المشهور السير "أرنولد توينبى" محقا لما قال فى ندوة عقدت فى القاهرة عام ١٩٧٤ ان المصريين عندما التقوا بالفرنسيين عام ١٧٩٨ كانوا وكأنهم يلتقون بمتطفلين "وفدوا من كوكب آخر" ! (٧)

ولم يكن ليخطر للمصريين ان "الفرنجة" قادرون على غزو بلادهم بهذه السهولة خاصة وانهم من "الكفرة" الا انه قد حدث وكان عليهم أن يتعاملوا مع أبناء هذا المجتمع المدنى بكل نظمه وأفكاره ، وكان عليهم أن يتلقوا كل يوم مزيد من الصدمات سجلها المؤرخ المصرى الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه المعروف "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" .

على المستوى الاقتصادي جاء الفرنسيون بالقيم الرأسمالية أولها قيمة استخدام النقد فى البيع والشراء ، ومنذ اللحظة الأولى لدخولهم القاهرة ..

يقول الجبرتى انهم بعد أن دخلوا المدينة "مشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعد ، بل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن .. فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسة ، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم . فلما رأى العامة منهم ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم ، وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع

المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن ، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والمقاهى" !

ويقول مؤرخنا فى موقع آخر مسجلا نفس الحقيقة : "ثم ان عساكرهم صارت تدخل المدينة شيئا فشيئا حتى امتلأت منها الطرقات ، وسكنوا فى البيوت ولكن لم يشوشوا على أحد .. وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات مثل الفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك" ! (٨)

وإذا كان ما تعلق بالسلوك المدنى فى جانبه الاقتصادى قد أعجب المصريين فانه فى جانبه السياسى لم يرتحوا اليه ..

لم يعجب المصريين محاولة نقل نمط "الحكومة المركزية" بديلا عن الوضعية الطائفية فى مصر وإعتبروه ذلك لونا غير مقبول من التدخل فى حياتهم الخاصة مما عبر عنه "الجبرتى" فى مناسبات مختلفة .

فلما لم يكن ليستقيم الابقاء على أبواب الحارات القديمة فى المدينة مع محاولة الحكومة الجديدة بسط نفوذها على مختلف أنحائها فقد "شرعوا فى تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة. وخرج عدة من عساكرهم يحلون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات ، واستمروا على ذلك عدة أيام" .

هذا ما سجله "الجبرتى" عن الحدث ، أما ما سجله عن رد الفعل

فقد جاء فيه :"داخل الناس من ذلك وهم وخوف شديد وظنوا ظنونا وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة" !

واستمرارا فى بسط سلطة الحكومة مضى الفرنسيون قدما فى العمل على تيسير تنقل قواتهم وكان من أهم ما فعلوه فى هذا الشأن عملين أثارا لدى المصريين مزيدا من الهواجس ..

الحدث الأول : هدم مساطب الحوانيت ورفع أحجارها "مظهرين أن القصد من ذلك توسيع الأزقة لمرور العربات الكبيرة التى ينقلون عليها المتاع" ، أما رد الفعل الذى عبر عنه شيخنا العتيد: "حصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك ، وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران فى الشقوق" ! (٩)

الحدث الثانى : متصل بما قرره الفرنسيون من اضاءة الأهالى لحارتهم وتغريم من لا يقوم بهذه المهمة "حتى كان الناس ليس لهم شغل الا القناديل وتفقد حالها وخصوصا فى ليل الشتاء الطويل" ! (١٠)

فضلا عن ذلك فان الحكومة المدنية الجديدة لم تكن تحصل المال وتقوم بمهمة الدفاع والأمن فحسب ، بل كانت أيضا تقدم الخدمات وهو ما لم يعهده المصريون فى كهفهم ، ومن ثم فعندما حاوله الفرنسيون فقد استغربوه ، بل واستهجنوه !

نقدم قصة الخدمة الصحية التى حاولها الفرنسيون خلال انتشار الطاعون فى القاهرة نموذجا لذلك فقد اقاموا "حجرا صحيا" فى جزيرة بولاق وطلبوا الى الناس عدم دفن الموتى قريبا من المنازل، كما دققوا

فى تطبيق الاجراءات الخاصة بتبخير المنازل ونشر الثياب اعتبر المصريون ذلك تدخلا فى أشد خصوصيات حياتهم .

ويرتبط "بالحكومة المركزية" قضية أخرى هى قضية الانتماء ، فبينما كانت مشاعر الانتماء الدينى غالبة عند المصريين فقد خاطبهم نابليون بمشاعر الانتماء الوطنى ، وهو ما لم يفهموه وقتذاك!

فى أحد المنشورات الأولى التى أصدرها الفرنسيون حاولوا استنفار المشاعر الوطنية لدى المصريين .. جاء فى هذا المنشور ان : "قطر مصر هو المركز الوحيد ، وانه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه أهل بابل ، وملكه اليونانيون .. الا أن دولة الترك شددت فى خرابه .. ثم ان طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة" ! (١١)

ويسجل الجبرتى هذه العبارات ولا يشد انتباهه ما جاء فى مطلعها من تقرير دور مصر الحضارى الرائد ، ويقتصر تعليقه على القول "لم يعجبنى فى هذا التركيب الا قوله (المفعمة جهلا وغباوة) بعد قوله (اشتاقت أنفسهم) " ولم يزد !

يأتى بعد ذلك من الفرنسيين ما اتصل بالمفهوم "الانسانى"

للمجتمع المدنى وقد صدم المصريين فى بعض جوانبه وأعجبهم فى جوانب أخرى ..

الصدمة بدت من المنشور الأول الذى وزعه الفرنسيون والذى جاء فيه : "قولوا لهم أيضا أن جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط" فقد علق الجبرتى على القول بالمساواة بين الناس بأنه "كذب وجهل وحماقة" ويتساءل "كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض" !

أما الإعجاب فقد عبر عنه الجبرتى من الضمانات التى كفلها القانون لسليمان الحلبى قاتل "كبير الفرنسيين" الجنرال كليبر ، والتى قال عنها لما أوردها فى كتابه أنه قد أوردها "لما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل .. وكيف وقد تجرأ على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج وغدره . وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله بل رتبوا حكومة ومحاكمة ، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم بخلاف ما رأينا بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر .. الذين يزعمون انهم يجاهدون وقتلهم الانفس وتجارؤهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية" .

والحديث عن "البنية الانسانية" عند هذا المثقف المصرى انما يشى

بأن الفكرة قد لقيت قبولا لديه .

الذى نزل موقع الدهشة والصدمة فى نفس الوقت ما عاينه الجبرتى فى المجمع العلمى الفرنسى ، ونترك له باعتباره واحدا من أهم المثقفين التعبير عما أصابه من مبتكرات هذا المجتمع المدنى .. يقول :

" ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شئ كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا أمسك علاقتها شخص ، ولو خيطا لطيف متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو ما قرب منها يده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة من لمس هذا الامس .. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا " ! (١٢)

وليس أفضل من هذا القول تعبيرا عن الصدمة .. "لا تسعها عقول أمثالنا" الأمر الذى تطلب وقتا لتتسع مثل هذه العقول بدخول المجتمع المدنى بكل مفرداته !

****

حواشى الفصل الثالث

(١) Packard L.B. The Commercial Revolution1400-1776

(٢) Andersin , M.S. Europe in the Eighteenth Century

(٣) Lossky , A. The Seventeenth Century

(٤) السيد رجب حراز : عصر النهضة – دراسة فى الحضارة الأوربية

(٥) Smith , P. The Age of the Reformation

(٦) Hazard, P. European thought in Eighteenth Century

(٧) Toynbee , Arnold : Abdul Rahman Al- jabarti and his times

(٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٣

(٩) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦١

(١٠) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٨

(١١) يونان لبيب رزق : الجبرتى والشخصية المصرية ص ١٢٤

(١٢) الجبرتى : نفس المرجع – الجزء الثالث.

الفصل الرابع

إسقاط اللامركزية

ضباط لا فرسان
علماء لا زعماء

الفصل الرابع
اسقاط اللاصوكزية !

فى يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١ شهد الممر المؤدى الى باب العزب فى قلعة صلاح الدين بالقاهرة الحادثة المشهورة التى انتهت بقتل أغلب أمراء المماليك الموجودين بمصر .قبل ذلك من عامين ، وفى يوم السبت ١٢ أغسطس عام ١٨٠٩ كان الزعيم المصرى المعروف السيد " عمر مكرم " يركب من بولاق السفينة النيلية التى أقلته منفيا الى دمياط ، وكانت تعتبر وقتئذ من المنافى لمشقة السفر اليها !

وربما لم يقع لوم على باشا مصر المعروف محمد على بقدر ما وقع بسبب هاتين الفعلتين ، ودعونا ننقل بعض ماتم التعبير عنه فى هذا الاتجاه .. اتجاه التعبير عن اللوم والأسى ..

بالنسبة للحادثة الأولى .. حادثة ضرب المماليك وصفها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المصرى الذى عاين الحادثة بقوله " كانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها " (١)

بعد ذلك بأكثر من قرن وصفها عبد الرحمن آخر هو الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بأنها كانت " نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا " واستشهد فى ذلك بقولة أحد معاونى محمد على الفرنسيين ، هو المسيو جومار ، والتى جاء فيها : " لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية ! (٢)

واذا كان استهجان فعلة محمد على فى المماليك قد تأسس على ما ارتأه هؤلاء من انها كانت تتسم " بالغدر" فأن استهجانهم لفعلته فى السيد عمر مكرم قد تأسست على اتهام " بالجحود " ، الأمر الذى بدآ أيضا فى مجموعة الأحكام التى صدرت بشأنها، ونعود مرة أخرى للمؤرخين المصريين الجبرتى والرافعى .

الجبرتى يقول عن يوم رحيل عمر مكرم " اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر ، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدآ للناس ولتعصبه على نصرة الحق " (٣) أما الرافعى فقد قال انه " لم يعرف فضله ولاكوفئ على جهاده بالشكر وحسن التقدير، بل كان نصيبه النفى والحرمان والأقصاء من ميدان العمل ونكر ان الجميل " (٤)

ويلاحظ فى هذا الصدد ان الحكمين بالغدر أو بالجحود قد صدرا أساسا من منطلقات أخلاقية، واذا كان للشيخ الجبرتى عذره فى التذرع بمثل هذا المنطلق سواء بحكم العصر أو بحكم المعاينة فاننا لانرى سببا لاصدار الحكم من الأستاذ الرافعى من نفس المنطلق ، فبناة الدول الحديثة فى العالم المعاصر كانوا قد تاثروا تماما بتعاليم ميكيافيلى فى كتابة المعروف " الأمير " والذى صار انجيلا للحكام فى اوربا وأصبحت له نفس الأهمية لدى من حذوا حذوهم فى الشرق، ولو حتى بعد قرون ، وكان منهم محمد علي .

فقبل الحادثتين المصريتين لم تتردد شخصية هامة مثل هنرى الثامن ملك انجلترا ، والذى عتبر أحد البناة الاساسيين للدولة الحديثتفى

بلاده، فى ارسال أعز أصدقائه ، وهو السير توماس مور More الى حتفه (١٥٣٥) ليس لسبب سوى أنه رفض حلف اليمين على أن يكون للملك حق الاشراف على القضا دون الكنيسة (٥) وحوادث أخرى كثيرة جرت خلال تلك الحقبة التاريخية اتسمت بقسوة بالغة من جانب الملوك ولكنها أدت فى النهاية الى بناء الدولة المركزية، وهو مافعله بالضبط محمد على باشا وليس صحيحا أن محمد على قد قضى على الوجود المملوكي في مصر .. الصحيح انه قضى على دورهم السياسى ، هذا الدور الذى استمر طوال العصر العثمانى رغم القضاء على دولتهم فى مستهل القرن السادس عشر وليس صحيحا ان نفى السيد عمر مكرم الى دمياط قد أنهى وجود المؤسسة الدينية فى مصر وانما الصحيح انه وضعها فى مكانها الذى أراده لها مؤسس الدولة الحديثة .. مؤسسة دينية وليست مؤسسة سياسية ، وهو ما تؤكده عملية متابعة بناء الحكومة المركزية فى مصر .

ضباط لا فرسان :

فى ظل نظام العصور الوسطى كان الفرسان يحاربون ويحكمون ، وهو ماكان يفعله المماليك فى مصر من خلال بيوتاتهم، وكان مثل هذا النظام مسموحا به طالما يؤدى وظيفته التاريخية .

فى الغرب انتهت هذه الوظيفة بعد توقف غارات القبائل الشمالية وتحول الفرسان الى أصحاب امتيازات موروثة بدلا من أن يصبحوا أصحاب مهمة محدده داخل سياق الحركة التاريخية مما أدى الى تحولهم فى مطلع

العصور الحديثة الى مجرد قوة اجتماعية اذا لعبت دور اسياسيا فقد كانت تلعبه تحت المظلة الملكية .

في مصر فقد فرسان المماليك وظيفتهم بعد انكشافهم أمام القوات الفرنسية في صيف عام ١٧٩٨ ، ففي الصدامات المحدودة التى جرت بينهم وبين قوات نابليون تبين المصريون مصداقية المثل القائل "أسد على وفى الحروب نعامة " الأمر الذى لم يستمروا معه صالحين للقيام بذلك العمل الذى طالما قاموا به من قبل .. حماية مصر وتقاضى الثمن !

ولم ينقض الأمر بخروج " الفرنسيس" فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١) كان العكس صحيحا ..

فهم من ناحية تحولوا إلى عمليات نهب واسعه فى أعقاب ذلك الخروج لتعويض فترة الشتات التى عانوا منها خلال وجودهم، ولم يكن لهذا النهب مايبرره هذه المرة، وهم من ناحية أخرى سعوا للتحالف مع الدولتين الأوربيتين اللتين كانتا تطمعان فى مصر وقتذاك فرنسا وانجلترا الأمر الذى أفقدهم مصداقيتهم انهم موجودون فى مصر لأداء وظيفة دينية هى وظيفة الجهاد، وأى جهاد هذا مع الجرى وراء النصارى حتى أن أميرا من كبار أمرائهم، هو شاهين بك ، كتب الى قائد الأسطوال الانجليزى فى المتوسط قائلا " أؤكد كذلك اننى مستعد لأن اخضع خضوعا تاما بكل قواى لمشيئة الحكومة البريطانية ، حتى لو كلفنى هذا السعى حياتى " ! وهم من ناحية ثالثة كانوا قد فقدوا كثيرا

من أسباب قوتهم ليس فى محاربة الفرنسيين وانما فى الفرار منهم !(٦)

ولم تكن مثل هذه التطورات غائبة حتى عن المماليك أنفسهم ، فقبل الحادثة الشهيرة بأربع سنوات بالضبط ، وفى اوائل مارس عام ١٨٠٧ وعندما وافت المنية زعيمهم الكبير محمد بك الألفى كانت كلماته الأخيرة : " قضى الأمر ، وخلصت مصرلمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغالبة وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم " (٧) . وكانت نبوءة رجل يموت !

وليس فى مكنة حاكم مهما بلغت مواهبة أن يصنع ظرفا تاريخيا ولكن تتبدى قوته عندما يستثمر مثل هذا الظرف لدفع عجلة التاريخ وهو بالضبط مافعله محمد على باشا بتدبيرة حادثه القلعة التى آثر الأستاذ الرافعى أن يصفها بالمذبحة، وهو التوصيف الذى شاع بعد ذلك أما قبلها فقد راج توصيف الجبرتى .. الحادثة الشنيعة !

وتتبدى أهمية هذه " الحادثة الشنيعة " كخطوة فى الخروج من كهف العصور الوسطى فى أكثر من جانب ..

١) فقد توقف تماما الدور السياسى للمماليك فى الحياة المصرية فقد بقى بعد الحادثة خمسمائة أو ستمائة فحسب منهم اجتمعوا مع اثنين من أمرائهم فى أعالى الصعيد وتمكنت " قوات الباشا " بسهولة من تشتيتهم الى السودان .

ولم يعد هذا التشتيت من قوة عسكرية فى مصر سوى " قوات الباشا " وهو ما كان قد حدث من قبل فى التحول إلى الدولة الموناركية

Monarchyحين أصبح " الجيش الملكى " هو القوة العسكرية الوحيدة .

٢) لم تكن هذه الحادثة خطوة فحسب نحو مركزية الدولة من الوجهة العسكرية ، بل كانت خطوة ايضا لتقوية قبضة الحكومة الجديدة على الاقتصاد المصري .

فمن ناحية تم نزح ثروات المماليك التى كانت موجودة فى القاهرة الى خزينة الباشا أو الى انصاره الذين قطنوا القصور التى كان يملكها الأمراء فى المحروسة .

من ناحية أخرى وهى الأهم ، فقد أدى التخلص من أمراء المماليك على هذا النحو الى سقوط النظام الاقتصادى الذى قاموا عليه .. نظام الاقطاع ممثلا فى " الالتزامات " التى كانت لهؤلاء فى سائر أنحاء مصر .

ونظام " الالتزام " وهو التسمية المصرية لنظام الاقطاع ، كان يتمتع أمراء المماليك بمقتضاه بالسيطرة على مساحات واسعة من الأراضى الزراعية المصرية والتى كانت المصدر الأساسى لتمويلهم ولاستمرار بيوتاتهم ، وقد اتاح اختفاء الأمراء للباشا أن يضع يده على زمامات الالتزام للأمراء .(٨)

ساعد ذلك محمد على فى التحرك نحو الغاء نظام الالتزام ونجح من خلال سياسة متدرجة فى وضع يده على أغلب الأراضى الزراعية المصرية مما وفر للإدارة المركزية الجديدة مصدر التمويل المطلوب .

٣) لم يترتب على هذه الحادثة ماترتب على الهزائم العسكرية التى نزلت بالإقطاعيين فى أوربا على أيدى الملوك ، فبينما تحول هؤلاء الى طبقة اجتماعية تحيط بالملوك فانهم فى مصر قد اختفوا تقريبا من على الخريطة الاجتماعية التى كانوا فى قمتها ، ، كما سبق واختفوا من على الخريطة السياسية .

٤) بيد ان هذا الاختفاء لم يكن كاملا فان محمد على ابقى على عدد كبير من صفار المماليك وجعلهم من جملة الجند المنوط بهم حراسته وقد تم اختيار عدد من هؤلاء كانوا من أوائل من دخلوا كلية الحربية لدى نشأتها باسم " مدرسة الجهادية " وكانوا من اوائل " الضباط " الذين عرفهم الجيش المصرى الحديث (٩) وان كان ثمة ملاحظة فهى انه مع انفراط النظام الذى كان يحكم فى اطاره الوجود المملوكى فان أبناء المماليك هؤلاء تحولوا الى أدوات للدولة الجديدة ، ولم ينقض وقت طويل حتى انخرطوا فى الطبقة الاجتماعية الجديدة لتى أنشاها الباشا .. طبقة الارستقراطية التركية وهى طبقة كان وجورها جائزا فى ظل الدولة المركزية .

علماء لا زعماء !

ينعى كثيرون على محمد على فعلته الثانية .. نفى السيد عمر مكرم الى دمياط وتخلصه من الزعامة الشعبية التى كان يمثلها ، وكان من رأى هؤلاء ان الفرصة التى أتيحت لمصر مع وجود الحملة الفرنسية وفى أعقابها لنمو وتطور الزعامة الشعبية قد قتلها الباشا .

ويرى هؤلاء أن ميول محمد على الأستبدادية دفنت بذور الديموقراطية التى كان يمكن أن تزهر لو تركت لها الفرصة .

أكثر من ذلك فان هؤلاء يرون أن يد محمد على الباطشة لم تطل الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم فحسب بل طالت أيضا غيره من الزعامات الشعبية التى لعبت دورا فى مقاومة الحملة الفرنسية مثل حجاج الخضرى .

ولم يفهم هؤلاء ان " الدولة الحديثة " فى عملية تحولها من وضع اللامركزية الاقطاعى الى وضع المركزية المدنى لم يكن يمكن أن تسمح لبقاء أى قوة تكرس النظام القديم، وكان العلماء الذين يعملون فى السياسة من هذه القوى بحكم طبيعة الدور الذى كانوا يؤدونه ... دور إصدار الفتاوى فى الصراعات بين أجنحة المؤسسة العسكرية ، وهى المؤسسة التى أخذت فى التساقط ودور الدفاع عن أبناء الطوائف ولم تكن الحكومة المركزية التى أخذ محمد على فى اقامتها لتسمح بأن يكون هناك وسيطا بينها وبين الرعية مهما بلغت مكانة هذا الوسيط .

ولعل تطورات الأزمة التى نشأت بين محمد على والسيد عمر مكوم لا تشير الى خصومة بين الرجلين بقدر ما تشير إلى تناقض المفاهيم فعمر مكرم على ضوء تجربته فى الدولة الاقطاعية كان لايرى أن هناك مايمنع من أن ينزل اليه الباشا لاسترضائه أو التفاهم معه فيما كان يحدث كثيرا من قبل ، أما محمد على الساعى الى بناء السلطة المركزية فلم يكن ليقبل هذا فيما عبر عنه بقوله " هل بلغ به أن يزدرينى

ويأمرنى بالنزول من محل حكمى الى بيوت الناس " !

يؤكد ذلك أيضا أنه بعد أن قضى عمر مكرم بضع سنوات فى دمياط كانت الحكومة المركزية فى القاهرة قد أكتسبت قدرا من الرسوخ وطلب الحج عام ١٨١٨ وأراد العودة الى العاصمة كان تعليق الباشا " أنا لم أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفامن الفتنة، والآن لم يبق شئ من ذلك فانهبأبى .وبينى وبينه مالا أنساه من المحبة والمعروف "! (١٠)

ويلاحظ هنا أن عصر محمد على عرف تحول الدور الذى كان يقوم به العلماء من الدور السياسى الى الدور الثقافى ..

ويجسد شيخان كبيران عرفهما هذا العصر عملية التحول تلك .. أولهما الشيخ العطار وثانيهما الشيخ رفاعة الطهطاوى .

الشيخ حسن العطار مع انه كان من جيل الجبرتى وعمر مكرم إلا أنه كان أكثر حماسا للتغيير خاصة بعد أن خالط الفرنسيين مما دعاه الى اطلاق قولته المشهورة .. " إن بلادنالا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها " .

ويبدو ان حماس العطار قد ذهب به بعيدا إلى الحد الذى دفعه الى مغادرة مصر مع خروج الفرنسيين خوفا من اتهامة بأنه كان متعاونا معهم ، واستمر فى الخارج حتى عام ١٨١٣ حين عاد اليها .

والواضح ان سعة أفق الشيخ المستنيرقد دفعت محمد على الى تقريبة منه الى الحد الذى انتهى الأمر معه إلى تعيينه شيخا للأزهر ،

وهو المنصب الذى بقى به حتى وفاته عام ١٨٣٤. (١١)

وقد كان العطار يمثل النموذج الذى يلائم مشروع باشا مصر فى بناء الدولة المركزية ، فهو من خلال اصلاحه للأزهر وتشجيعه لتدريس العلوم العقلية، دون ما تدخل فى السياسة ، كان يمثل عنصرا معاونا لتطور المجتمع المدنى لا عائقا فى وجهة .

وتبدو قيمة الشيخ حسن العطار كجسر تسير عليه مصر الى الدولة الحديثة من عملية التفريخ التى قام بها بتخريج أعداد من العلماء الذين عملوا في خدمة هذه الدولة .

لعل وصية العطار الى تلميذه الشيخ رفاعه والتى سجلها الأخير فى كتابه الشهير " تخليص الابريز فى تلخيص باريز " تدلل على هذا .. قال رفاعة " فلما رسم اسمى في جملة المسافرين (فى البعثة التى ذهبت الى فرنسا عام (١٩٢٦) وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين لاسيما العطار فانه مولع بسماع عجائب الأخبار والأطلاع على غرائب الآثار ، أن أنبه على مايقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وأصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن اقيده ليكون نافعاً(١٢)

ويقدم الطهطاوى المرحلة الثالثة من دور رجال الدين ، خاصة رجال الأزهر فى التحول من الزعماء الى العلماء ..

أول ما يلاحظ فى هذا الشأن أن رفاعة لم يعمل الا فى كنف الدولة منذ أن ذهب إماما لبعثة باريس (١٨٢٦) . التى عاد منها

ليتدرج فى المناصب حتى تولى ادارة مدرسة الألسن التى ارتبطت باسمه منذ نشأتها عام ١٨٣٥ وحتى أغلقها عباس الأول بعد ذلك بستة عشر عاما.

يلاحظ أيضا أنه حتى لما أراد عباس نفيه الى الخرطوم تحت حجة التنظر على المدرسة الابتدائية المصرية فيها لم يجرؤ على مخالفته فقد كان الباشا فى نظر رفاعة ممثلا للدولة الحديثة التى لايمكن تحديها ، وهو فى هذا قد اختلف تماما عن جيل السيد عمر مكرم الذى نفى لانه وقف موقف التحدى من هذه الدولة .

أكثر من ذلك فان الوضعية الاجتماعية لرفاعة قد اكتسبها من كونه أحد رجال الدولة سواء كانت هذه الوضعية منصبا أو أملاكا .

المنصب بدا ليس فقط فى المراكز الوظيفية التى تولاها بل فى الرتب التى نالها ، فقد كانت الوظائف المدنية فى ذلك العصر مرتبطة بالرتب العسكرية التى وصل فيها الى رتبة أمير اللواء القديم والأملاك التى جاءته على شكل " انعامات " متوالية بلغ مجموعها فى النهاية ٦٥٠ فدانا أنعم علية بها كل من محمد على وسعيد واسماعيل .

والواضح ان رفاعة قد تفهم تماما ما تعنيه الدولة المركزية الأمر الذى عبر عنه بالتفصيل فى كتابه " المرشد الأمين للبنات والبنين .

جاء فى موقع من هذا الكتاب عن الحاكم فى هذا النوع من الدول قوله : " ولى الأمر هو رئيس أمته ، وصاحب النفوذ الأول فى دولته ، وحاكم متصرف بالأصول المرعية فى مملكته ، ولا توجد رعية فى مملكة

منتظمة بدون راع ، والا ضعفت واختلت وشقى أهلها لعدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شؤونهم " .

ويدلف من هذا الى الحديث عن مركزة السلطة فى موقع آخر .. يقول " من مزاياولاة الأمور أيضا ان النفوذ الملوكى بيدهم خاصة ، لايشاركهم فيه مشارك ، وهذه المزية العظيمة تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة حيث أن اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة لكونه منوطا بارادة واحدة بخلاف إذا ماأنيطت بارادات متعددة بيد كثيرين فانه يكون بطيئا . (١٣)

ويبدو التحول الجذرى لرجال الدين من الزعماء الى العلماء فى مقدمات الكتب التى كان يوجهها رفاعة للحكام من أبناء اسرة محمد على كان منها ماجاء فى مقدمة " مناهج لولى عهد الخديو اسماعيل .. قال فى وصفه له :

" حضره ولى عهد هذا الوطن الشريف ، وحامى حمى مصر المنيف ، الوزير الأعظم والمشير الأفخم ، الجامع لأسباب الفضائل والحكم ، والرافع لجمعية المعارف تحت لواء أبية أعلى علم ، من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق .. (١٤)

ويبدو الفارق هنا كبير فى لغة الخطاب الذى يوجهه رفاعة للحاكم وبين لغة الخطاب الذى كان يوجهة السيد عمر مكرم والذى كان يأمره فيه بالنزول من " محل حكمه الى بيوت الناس " وهو الفارق بين دور العالم الزعيم السياسى والعالم المعنى بشئون دينه .

****

حواشى الفصل الرابع

١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج٤ ص١٣١
٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٩٢
٣) الجبرتى ج٤ ص ٩٩
٤) الرافعى : المصدر السابق ص ٨٠
٥) Trevelyan , G.M. History ofEngland
٦) محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ج ١
٧) الجبرتى ج٤ ص ٣٨
٨) هيلين ريفلين (ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى) الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ص ٨٠
٩) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على
١٠) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٧٩-٨٠
١١) عبد الله عزبارى : الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر (رسالة دكتوراه غير منشورة)
١٢) رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز
١٣) رفاعة رافع الطهطاوى : المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين
١٤) رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية فى مباهج الأداب العصرية .

الفصل الخامس

حكومة الباشا

لملمة الأطراف

أعجوبة زمانه وفريد أوانه

الفصل الخامس
حكومة الباشا !

" روح انظر غيرى أنا مشغول فى شغلى انتم ايش بقالكم فى البلاد قد انقضت ايامكم .. احنا صرنا فلاحين الباشا " ! (١)

كانت هذه هى الاجابة التى رددها الفلاحون المصريون على طلب الملتزمين (الاقطاعيين) تشغيلهم فى أراضيهم وهى الاجابة التى سجلها شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى فى يوميات عن شهر مايو عام ١٨١٤ أى بعد أقل من عشرة سنوات من تولية محمد على وكان لهذه الاجابة مدلولها

فى موقع آخر من يوميات نفس المؤرخ وقبل ذلك بأكثر من عامين (يناير ٨١٢) يقول : " وشاع بين الناس اضافة ذلك الى الباشا فيقولون كرنب الباشا ولفت الباشا وملوخية الباشا وفجل الباشا وقرنبيط الباشا " (٢) وكان لهذه التسميات بدورها مدلولها .

كان معنى ذلك ببساطة أن السلطة المركزية فى القاهرة ممثلة فى " الباشا " قد وصلت الى أعماق الريف فى غضون سنوات قليلة من تولى محمد على لمنصبه (١٨٠٥) وهو امر مثير على ضوء الحقيقة المعلومة ان هذا الريف قد استمر لقرون طويلة شبة معزول عن السلطة المركزية وهو لم يعرف من هذه السلطة الا ممثلى الملتزم والذين كانوا فى العادة من أبناء القرى التى تقع فى زمام الالتزام .. وأذا كان الريف قد وصلته

السلطة المركزية على هذا النحو ذى الدلالة فمن الطبيعى أن تكون تلك السلطة قد أحكمت قبضتها من قبل على المدينة ، مما كان الخطوة الأساسية نحو اقامه المجتمع المدنى فى مصر ولهذا قصة ..

سلطة الأطراف :

قد لايعلم كثيرون ان الباشا العثمانى فى القاهرة كانت لا تمتد سلطاته الى الموانى المصرية ، الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس ، فقد كان الباب العالى يرسل الى مصر ثلاثة " قبود انات " أحدهم للاسكندرية والثانى لدمياط ورشيد والثالث للسويس،وكان كل من هؤلاء يحمل لقب الباشوية شأنه شأن باشا القاهرة كما كان مستقلاعنه(٣)

وقد لايعلم كثيرون أيضا أن بعض العصبيات البعيدة عن العاصمة قد نجحت فى اقامة ادارة شبه مستقلة عنها ، ويقدم " الهوارة فى الصعيد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نموذجا على ذلك ، فقد أجبر هؤلاء بزعامةشيخهم همام فى اقامة دولة شبه مستقلة شمالى أسيوط أضطر ممثلو السلطة المركزية فى القاهرة الى الاعتراف بها حتى أن بعض الرحالة الأجانب قد سموها " بجمهورية همام " ولم يقض على هذه الجمهورية الا " على بك الكبير " الذى سبق محمد على بنحو ثلث قرن وكانت محاولته فى الاستقلال بمصر اشبه " ببروفة " لمحاولة القرن التاسع عشر التى قادها الأخير . (٤)

وفى الوجة البحرى كان وجود سلطة القاهرة شاحبا تماما فى اقاليم

الأطراف ، خاصة اقليم الشرقية والذي كانت عاصمته وقتذاك المنصورة واقليم البحيرة وكانت عاصمته دمنهور ، بحكم متاخمة هذه الاقاليم للمناطق الصحراوية التى تجول فيها قبائل البدو ، وكان على سكان هذه الاقاليم ان يتعاملوا مع ابناء تلك القبائل من خلال " ديات " معينة يؤدونها لهم دون أي وجود للحكومة المركزية

وتبدو المفارضة هنا التى تؤكد على غياب هذه الحكومة شبه الكامل من ان الفرق العسكرية العثمانية السبعة التى توجدات لمصر وكان موكلا لها حماية الاقاليم المصرية تحول هذا الوجود مع الوقت لامتيازات يتقاضاها رجال هذه الفرق من ابناء الأقاليم دون أن يقوموا بواجباتهم الموكلة اليهم، والطريف ان تلك الامتيازات كانت تورث وتباع بينما ترك لأهالى الأقاليم أن يدبروا أمورهم مع المخاطر التى تهددهم خاصة من البدو المحيطين مما يوضح الى أى حد بلغ تهرؤ السلطة المركزية(٥)

وكان على " الباشا " لاقامة الدولة المدنية محل الدولة الاقطاعية التى كان ماسبق يشكل بعض سماتها .. كان عليه أن يبدأ فى عملية طويلة للملمة الأطراف ..

جانب من هذه اللملمة تم عن طريق استنبول فقد كان مطلوبا أن يكف الباب العالى عن تمزيق مصر من خلال وقف تعيين " القبود انات " اياهم لتبقى مصر تحت ادارة واحدة بمدنها وموانيها واقاليمها

تم التخلص من هؤلاء خلال فترة الصراع التى خاضها محمد على

لتثبيت وجوده فى مصر، خاصة صراعة مع الحملة البحرية العثمانية التى جاءت الى مصر عام ١٨٠٦ والتى كانت تسعى الى استبعاد الباشا فانتهى الأمر بأن خرجت الحملة من الاسكندرية بعد أن وطد الرجل نفوذه على الموانئ التى كانت تخرج من قبل عن مناطق حكمه .

أما فى الصعيد فلندع الجبرتى يقص علينا مدى ما وصل اليه نفوذ الباشا فيه وفى غضون سنوات قليلة ..

يقول عن احداث شهر يناير عام ١٨١٢ أنه " لما انتظم له ملك بلاد الصعيد ولم يبق له فيه منازع قلد امارته لابنه ابراهيم باشا ورسم بأن يضبط جميع أطيان بلاد الصعيد ، حتى الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والخيرات الكائنة بمصر وغيرها وآوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم وصهاريجهم ووظائف المدرسين والمقرئين وغير ذلك ". (٦) .

ويقول عن أحداث ديسمبر عام ١٨١٣ ان الباشا " فرغ من أمر الجهة القبلية حرر أراضى الصعيد وقاس جملة أراضية وفدنه ، وضبطه بأجمعه ولم يترك منه إلاما قل. وضبط لديو انه جميع الأراضى الميرية والاقطاعات التى كانت للملتزمين من الأمراء والهوارة وذوى البيوت القديمة " .ويستطرد الجبرتى فى هذا الموقع فيشير انه رغم " التوسط والترجي والتشفع "من هؤلاء فلم يترك محمد على لهم الا القليل . (٧)

ويبدو مدى التحول الذى حدث بالنسبة للهوارة مثلا انهم انتقلوا من موقع الاستقلال واملاء الشروط على القاهرة خلال القرن الثامن عشر

الى موقع " التشفع والترجى " مع السلطة المركزية الجديدة .. سلطة حكومة الباشا !

واذا كان للبدو كل تلك السطوة السياسية فى الصعيد فقد كانت لهم سطوة أخرى فى الدلتا ، هى السطوة على الفلاحين اكثر منها سطوة على الارض وكان هذا الشكل من السطوة يتطلب تعاملا مختلفا من جانب حكومة الباشا .

بدا هذا التعامل فى السياسة الواسعة التى اتبعها محمد على والتى استهدفت إقرار هؤلاء فى الأراضى الزراعية أو الأراضى التى يتم استصلاحها حتى يكونوا فى متناول ايدى الحكومة المركزية

يقدم لنا على مبارك فى " الخطط التوفيقية " نماذج عديدة لعملية اقرار البدو فى عصر محمد على نختار منها نموذج بدو الشرقية....

يشير فى هذا الصدد الى قبائل العائد الذين كانوا يشكلون عنصرا من أهم عناصر عدم الاستقرار فى الاقليم سواء من خلال تعدياتهم على الفلاحين أو ماكان لهم من " مناوشات كثيرة مع غيرهم من قبائل العرب " على حد تعبير صاحب الخطط .

ويصف على مبارك الكيفية التى امكن بها اخضاع هؤلاء فيقول : " فحصل تخييرهم بين معافاتهم من أن يعاملوا معاملة الفلاحين بشرط ان ينزع ماتحت أيديهم من الأراضى والنخيل كغيرهم من عرب الجبال والخيوش وبين أن يعاملوا معاملة الفلاحين ويبقى لهم ماتحت أيديهم ، فاختاروا الفلاحة وسيقوا سوق فلاحى مصر وعوملوا بمعاملتهم مع دفع

الأموال وحفر الترع وعمل القناطر وجرف الجسور وغير ذلك .. (٨)

وكان لعملية التوطين تلك آثار بالغة الأهمية فى للمة أطراف الوطن المصرى ، فقد أدت الى انشاء قرى جديدة تحولت الى تجمعات سكانيه لم تلبث ان دخلت فى نطاق شبكة الرى الواسعة التى اقامها محمد على .

ونتوقف هنا قليلا لنشير الى أهمية مجموع الترع والرياحات التى أقامتها " حكومة الباشا " فى فرض سيطرتها على سائر أنحاء الوطن ،فقد وضعت هذه الشبكة سائر أنحاء الريف المصرى تحت الاشراف المباشر للقاهرة ، ولم يعد ممكنا أن تعيش اية منطقة منه بمعزل عن سائر المناطق .

فمن ناحية كانت عمليات الرى تتم تحت اشراف السلطات الحكومية ومن ناحية أخرى فان عمليات تطهير الترع وما اتصل بها من مصارف كانت تحدث بدورها من خلال تنيظمات حكومية، ومن ناحية أخيرة فان شبكة الري وفرت فى نفس الوقت شبكة من المواصلات المائية أو البرية عبر الجسور التى امتدت على ضفاف الترع والرياحات جعلت أية منطقة فى مصر فى متناول موظفى الباشا أو عساكره .

ونعود مرة أخرى الى قضية توطين البدو فنشير الى حقيقة اخيرة فى هذا الصدد وهى ما عمدت اليه حكومة محمد على من تمليك مشايخ القبائل لمساحات واسعة من الأراضى الواقعة على أطراف الوادى التى استزرعوها ومنعوا بقايا البدو القاطنين فى الصحراء من الاغارة على

الوادى ، فضلا عن ذلك فانه مع الوقت تحول هؤلاء الى شريحه هامة من شرائح كبار الملاك . (٩)

دخل هؤلاء تلك الطبقة من خلال نظام " الأبعاديات " الذى ابتدعته حكومة الباشا وتقدم اسرة أباظة والشواربى نموذجا على هذه الشريحة من أبناء تلك الطبقة ..

الأباظية فى الشرقية وقد بدأ وامجدهم حين شغل حسن أباظة عام ١٨١٢ وظيفة شيخ مشايخ نصف الشرقية ، وأصبح ابنه السيد أباظة رجلا " عظيم الشأن " تعهد بنحو عشرين قرية من قرى الشرقية.

وآل شواربى فى القليوبية وقد بلغت مساحة مايقوم بزراعته محمد بن سالم الشواربى أربعة آلاف فدان ... وآخرون .. (١٠).

ومن خلال هذه السياسة المتعددة الاتجاهات يمكن القول ان حكومة الباشا قد نجحت فى لملمة أطراف الوطن المصرى وكان عليها بعد ذلك أن تخطو خطوة أخرى ..

اعجوبة زمانه وفريد اوانه :

بناء جهاز حكومى قادر استمر خطوة جوهرية فى برامج كافة الحكام الذين دخلوا التاريخ من باب بناة الدول الحديثة ، حدث هذا فى أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، هنرى السابع فى انجلترا ولويس الرابع عشر فى فرنسا ، وحدث هذا فى مصر على أيدى الباشا محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد صدرت كتابات ضافية حول الادارة التى نجح باشا مصر فى

اقامتها ويصعب هنا بالطبع استعراض تفاصيل عملية بناء تلك الادارة الأمر الذى يدفعنا إلى التوقف عند علاماتها الرئيسية التى قادت فى النهايةالى اقامة المجتمع المدنى فى مصر أو على الاقل مهدت له بدلا من المجتمع الريفى الذى كان قائما فى ظل دولة العثمنلى .

أولى هذه العلامات متصلة بشخصية الباشا نفسه ، ففى كل الدول المركزية التى شهدت العصور الحديثة نشأتها ، فقد جاءت هذه النشأة حول شخصية محورية ، وكان محمد على بالنسبة لمصر هذه الشخصية ...

ولعلنا لا نجد أفضل من التوصيف الذى قدمه رفاعة الطهطاوى عن هذه الشخصية مما يفسر دوره فى قمة الادارة .. قال رفاعة :

" كان محمد على سليم القلب ، صادق اللهجة ، أمينا فى تصرفة ، حكيما فى أعماله، كريما الى الغاية ، حريصا على عمار البلاد ، وفيا فى معاشرته ، حريصا على ود عشيرته وجنوده ورعيته ، متحببا اليهم . وأن كان فى بعض المواطن سريع الغضب فقد كان قريب الرضاء على الشدائد . صفوحا عن الجانى ، مقداما على إقتحام الأهوال صبورا على الشدائد، شديد الحرص على شرف ناموسه ، قوى الفطنة سريع الادراك ، يجول فكره فى الأمور البعيدة ، بصيرا فى الحساب الهوائى العقلى عجيب البديهة غريب الرواية ، تعلم القراءة والكتابة فى أقرب وقت وعمره خمسة وأربعون سنة .. فرغب فى مطالعة التواريخ خاصة تواريخ الفاتحين كتاريخ اسكندر وبطرس ونابليون .. "

ويدلف رفاعة من هذا الى سياسة محمد على فى بناء الدولة المركزية وهو ما يعنينا هنا .. يقول

" كان نشيطا يحب الحركة ويكره الكسل البطالة، قليل النوم ، سريع اليقظة ، يستيقظ غالبا عند الفجر يسمع بنفسه العرضحالات التى تعرض له يوميا عند الصباح ويعطى عنها جوابا ثم يذهب لمناظره العمارات الأميرية التى كان مغرما بها .. وكان يؤثر الفعل على القول بمعنى انه اذا اراد ترتيب لائحة مهمة فيها منفعة للأمة شرع فيها بقصد التجريب وأجراها شيئا فشيئا على طريق الاصلاح والتهذيب، فاذا سلكت فى الرعية وصارت قابلة لعوامل المفعولية كساها ثوب الترتيب والانتظام وأخرجها من القوة الى الفعل فى ضمن قانون الأصول والأحكام .. وكان مولعا ببناء العمائر وانشاء الأغراس وتمهيد الطرق واصلاح المزارع واتقان الصنائع والأعمال يرغب فى توسيع دائرة التجارة ويستميل عقول الأهالى ليجذبهم الى مافيه كسب البراعة والمهارة"(١١)

والحقيقة ان شهادة رفاعة مضافا اليها ماتؤكده وثائق العصر من ان هذا الباشا كان يتابع كل صغيرة وكبيرة فى الشئون المصرية إنما يشير الى أهمية وجوده على رأس الادارة المركزية التى أخذ فى اقامتها هذا من جانب والي الطبيعة شديدة التركز لهذه الادارة من جانب آخر .

العلامة (الثانية) متصلة بمجموع الادارات التى اقامها الباشا فى القاهرة ، وهى الادارات التى تسمت باسم الدواوين : ديوان الخديو

(الداخلية). وديوان الايرادات (المالية).وديوان الجهادية (الحرب). وديوان البحر (البحرية) وديوان المدارس (التعليم والاشغال)وديوان التجارة المصرية والامور الافرنكية (الخارجية) وديوان الفاوريقات (الصناعة).(١٢)

وتتعدد الملاحظات حول هذه العلامة ...

١) فلأول مرة فى تاريخ الحكم فى مصر العثمانية تقوم إدارات ذات طبيعة خدمية، التعليم والأشغال والتجارة والصناعة، وهى سمة تعرفها الدول الحديثة ولم تكن من مهام دول العصور الوسطى .

٢) أن مجموعة الدواوين التى نشأت أصبحت العمود الفقرى الذى قام عليه النظام الوزارى المصرى فيما بعد ، فهذه الدواوين هى التى تحولت الى " نظارات " فى عهد اسماعيل ثم أصبحت " وزارات " بعد سقوط السيادة العثمانية عام ١٩١٤وحتى ذلك الوقت كانت الزيادة فى تلك الادارات تتم بشكل محدود وتدريجى . (١٣)

٣)أن النشأة الادارية لهذا الهيكل الحكومى استمر يترك بصماته عليه واذا كانت هذه النشأة قد عرفتها دول عريقة مثل انجلترا التى بدأ مجموع وزرائها كسكرتيرين للملك الى درجة أن الوزير فى تلك البلاد لازال يحتفظ بلقبه القديم Secretaryفانه لاغرابة أن تعرف الدولة الحديثة نشأة جهازها الادارى على نفس الغرار .

٤) أدت هذه النشأة فى جانبها الأخير الى افراز طبقة " موظفى الميرى " والذين صنعوا كل القيم البيروقرطية المصرية وكانوا عنصرا

أساسيا من عناصر فرض المركزية ليس فى القاهرة فقط وانما فى كل أنحاء مصر !

على مستوى الادارة الاقليمية تم تقسيم مصر الى أربعة عشر مديرية أصبحت هى الاساس للأقسام الادارية فى الاقاليم المصرية حتى يومنا هذا ..

وقد وضع نظام دقيق لتلك المديريات يكفل تواجد حكومى فى اصغر أجزائها ، فقد تم تقسيم كل مديرية الى مأموريات وهذه الأخيرة الى أقسام يرأس كل منها كاشف، وتلك الى أخطاط ونواحى وقرى ، بل وصل الامر إلى تقسيم كل قرية كبيرة إلى حصص على رأس كل حصة منها شيخ !

ولأول مرة فى تاريخ مصر منذ أن فتحها العثمانيون تضع الحكومة المركزية فى القاهرة قانونا لإدارة الريف المصرى هو الذى تضمنه ما عرف باسم " لائحة زراعة الفلاح وتدبير (احكام السياسة) بقصد النجاح وما يعنينا فى هذه اللائحة ما أكدته من وجود فعال للإدارة المركزية فى الريف ومن تقنين لعلاقات ممثلى تلك الإدارة بالمصريين من سكان الريف ، الذين كانوا يشكلون غالبية الشعب فى تلك الفترة ، ثم انهم لم تكن لهم صلة تذكر بحكومة القاهرة من قبل ...تدرج الوجود الحكومى فى كل مديرية حيث تربع على قمته " المدير " والذى كان ممثلا للباشا من ناحية ومسئولا أمام ديوان الخديو (الداخلية) من ناحية أخرى ، يليه المآمير وكان كل منهم مختصا

بكافة شئون الادارة فى القرى التابعة له .

نظار الاقسام وكانوا يقومون بالادارة الفعلية للعملية الزراعية فى القرى التابعة ويشرفون على أعمال محاسبى الأقسام ومشايخ الخطوط ومشايخ البلد . (١٠٤)

وكان هذا الجهاز البيروقراطى المعقد والصارم يختلف جد الاختلاف عن النظام البسيط الذى كان قائما من قبل فى ظل نظام الالتزام ، خاصة مع ملاحظة ان النظام القديم كان موظفوه ممثلين للملتزمين وليسو ممثلين للحكومة التى لم يكن لها أى وجود حقيقى فى القرية المصرية .

نأتى بعد ذلك للعلاقة بين الجهاز الحكومى الجديد وبين الفلاحين المصريين وأهم مانلاحظه فى هذا الصدد الحكومة التى بدأت مع هؤلاء ثقيلة للغاية خاصة فى ظل نظام الاحتكار للحاصلات الزراعية الذى اتبعه الباشا .

غير أن هذه اليد الثقيلة التى اتبعتها الحكومة المركزية الجديدة فى الريف المصرى قد حاول الباشا موازنتها بمراقبة دقيقة لموظفيه وهى مراقبة كانت تقود أحيانا الى قطع رقابْ بعض الموظفين الذين يخونون ثقته .

بيد انها من ناحية أخرى قد انعكست على الفلاحين الذين انتشرت بينهم عمليات ترك الأرض والهروب الى المدن القريبة التى كان يتم استعادتهم منها بالقوة بعد انزال العقوبة المناسبة ، وكانت تتمثل

فى الجلد فى العادة . (١٥)

ثم ان هذه اليد الثقيلة بدت فى أعمال السخرة الواسعة التى مارستها الأدارة الجديدة حيال الفلاحين ، والتى تم من خلالها القيام بأكبر مشروعات الرى خاصة حفر ترعة المحمودية التى وان كانت قد أعادت الحياة الى ميناء الاسكندرية الذى كانت قد جفت عروقة الى حد كبير الا انها كلفت الفلاحين المصريين أكثر من اثنى عشر الف نفس

انه " لو وفقه الله لشئ من العدالة على مافية من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة ، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه !

****

حواشى الفصل الخامس

١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج٤ ص ٢٠٧

٢) نفس المصدر والجزء ص ١٥٦

٣) د. ليلى عبد اللطيف أحمد : الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ص ٣٨٥

٤) د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير

٥) د. عراقى يوسف محمد : الوجود العثمانى المملوكى فى مصر (الباب الرابع)

٦) الجبرتى : المصدر السابق ج٤ ص ١٥٣

٧) نفس المصدر ص ١٨٣

٨) على مبارك : الخطط التوفيقية

٩) ج.بير (ترجمة د. عبد الخالق لاشين عبد الحميد فهمى الجمال : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة (الفصل الأول : استيطان البدو)

١٠) د. رءوف عباس حامد : الملكية الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى (١٨٣٧-١٩١٤) ص ٩٠-٩٦

١١) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية (الفصل الأول من الباب الرابع)

١٢) هيلين ريفلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ص ١١٥

١٣) د. يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٣ (الفصل الأول)

١٤) ريفلين : المصدر السابق - نفس الفصل

١٥) المصدر السابق : الفصل السابع

الفصل السادس

الرعية تحمل السلاح

البداية : محاولة التحديث
المؤسسة العسكرية الحديثة
الخروج من الشرنقة

الفصل السادس
الرعية تحمل السلاح

" ليس على الرعية خروج " لحرب ، عبارة قالها محمد على فى وجه زعماء الشعب الذين ذهبوا اليه فى ابريل عام ١٨٠٧ مطالبين بالخروج لمحاربة الحملة البريطانية المعروفة بحملة فريزر والتى كانت قد نزلت على سواحل مصر الشمالية وقتذاك .

وكان باشا مصر يعبر بتلك العبارة عن روح عصر بأكمله فبعد أن استمرت مصر تتعرض لغزوات تلو غزوات ، فقد احتكر الغزاة حرفة الحرب ولم يعد للمصريين ثمة صلة بها .

وحتى من كانوا يوصفون أحيانا بأنهم الجيش المصرى أو الفرسان المصريين فان هذه التسمية أطلقت عليهم لأنهم حكموا أو استوطنوا بها ، وهو توصيف شاع أكثرما شاع على جماعات المماليك الذين لم يكونوا يقينا مضريين ولا حتى يعرفون العربية .

غير ان هذه العبارة التى فاه بها محمد على لم يمض وقت طويل عليها حتى كان هو من بادر بتغيير مفهومها وبدات لأول مرة فى التاريخ الرعية تحمل السلاح ، بما كان يمثل خطوة هامة نحو بناء الوطن المصرى ركيزة المجتمع المدنى .

البداية - محاولة التحديث :

داخل الوهم محمد على بأنه يمكنه فى اطار النظام القديم القائم ، النظام العثمانى - المملوكى أن يقيم قوة عسكرية حديثة على نفس النسق الذى عاينه فى قوة الحملة الفرنسية على مصر والذى أعجب به أيما أعجاب .

بيد ان ماغاب عن الرجل أن جيش نابليون لم يأت من فراغ وانما كان افرازة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطويلة التى عايشتها فرنسا بل وغرب أوربا خلال القرون الأربعة السابقة ، ومن ثم كان مفردة من منظومة كاملة ، وقد كاد هذا الغياب ان يكلف الرجل حياته عندما حاول تحديث الألة العسكرية منفصلا عن مجموع التغييرات التى تقود الى المجتمع المدنى الذى يؤدى الى هذا التحديث .

يسجل الجبرتى هذه الحقيقة فى يومياته عن عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥)م ، فيقول " أمر الباشا لجميع العساكر بالخروج الى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر حيث فيه العزب فخرجوا من ثلث الليل الأخير وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود على طريقة الافرنج وذلك من قبيل الفجر الى الضحوة ، ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين الى المنطقة في كبكبة عظيمة حتي زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم بل وحمير أيضا .. وحصل فى المعسكر قلقلة ولغط وتناجوا فيما بينهم وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم ووافقهم على النفور بعض

أعيانهم واتفقوا على غدر الباشا " (١)

ونجا محمد على من محاولة الغدر التى دبروها له غير أنه ايقن منها ان القضية ليست قضية تجديد النظم والتدريب او تحديث السلاح وانما القضية البشر الذين يمارسون هذا التدريب ويحملون ذاك السلاح ، وكان عليه أولا التخلص من الجيش القديم كما سبق وتخلص من أمراء المماليك والزعامات السياسية المناوئة .

أخذ الباشا يتحين الفرص للتخلص من جنود " النظام القديم " وبالتدريج ، فلم تمض شهور قليلة على رفضهم الأخذ بالنظم الحديثة حتى كان يعمل علي تشتيتهم ونعود مرة أخرى للجبرتى الذى يقول " ان أول مابدأ به اخراج العسكر مع كبرائهم الى ناحية بحرى وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية ، واخذوا صحبتهم مدافع وبارود وآلات الحرب واستمر خروجهم فى كل يوم وذلك من مكايدة معهم وابعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة فخرجوا أرسالا" !

ويلفت النظر هنا أن الجبرتى كان يرى فى سياسات محمد على لونا من المكائد ، وهو يذلك انما يعبر عن روح العصر الذى كان قبل أى شئ وبعد أى شئ أحد رجالاته ولم يكن ليستسيغ بسهولة عملية التغيير التى يقوم بها الباشا .

المهم ان محمد على قد سار بعد ذلك قدما نحو بناء مؤسسة من أهم مؤسسات تمدين المجتمع المصرى تلكم هى الجيش الوطنى ...

هذه المؤسسة لعبت دورا فى ترسيخ مفهوم الوطنية فان الانتصارات التى صنعتها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فضلا عن طبيعتها المصرية استمرت عنصرا أساسيا فى صنع الاعتزاز للوطن المصرى وترسيخ الانتماء اليه ، وبالتالى ومع مرور الوقت أخذت الفكرة الوطنية تنمو على حساب مشاعر الانتماء لدولة العثمنلى !

هذه المؤسسة ثانيا كانت النافذة العريضة التى أطل منها المصريون الي عالم الحداثة فى أوربا سواء من خلال الخبراء الذين تم استقدامهم لتعليم الجيش الجديد فنون القتال أو من خلال البعثات التى ذهبت الى سائر البلدان الأوربية .

هذه المؤسسة أخيرا استطاعت أن تجمع فى اطارها كافة عناصر الأمة من الفلاحين والبدو، ومن المسلمين والأقباط ، ومن أبناء المدن وأبناء الريف الأمر الذى خلق لأول مرة فى التاريخ البوتقة الحقيقة التى ينصهر فيها جميع المصريين خاصة عندما تسيل دماؤهم وتختلط على أرض المعارك ، وكانت عديدة !

ونبدأ بالتحديث فالمعلوم أن جيش النظام القديم كان يعتمد على الناحية العرقية حيث يختار جنوده من عناصر خاصة ثم على التدريب العسكرى منذ الصغر مما كان يجسده المماليك أو حتى القوات القادمة من الدولة نفسها ...

وكان هذا التدريب يقوم على الفروسية واجادة الكر والفر فضلا عن قدر مطلوب من الشجاعة ، وهى فى مجموعها أمور لم تعد ملحة

بالنسبة للجيوش الحديثة .. فقد أصبحت " العسكرية " علما قبل أن تكون مهارة فى ركوب الخيل ، وأصبح دور القائد فى الحروب الحفاظ على أرواح جنوده لا التضحية بهذه الأرواح الا فى حالة الضرورة القصوى ، فقد أصبحت حياة الانسان تعنى شيئا بعد كل المتغيرات التى أصابت الفكر الأوربى .

ويبدو مدى افتقار " الجيش القديم " لبعض هذه المقومات من أن بعض قوادة كانوا قد وصلوا الى رتب عالية مثل رتبة " الميرميران " وهم لا يجيدون القراءة أو الكتابة بمن فيهم محمد على نفسه !(٢)

وعيا بهذه الحقائق بدأ الباشا المصرى فى بناء المؤسسة العسكرية الحديثة ..

كان أول ما أهتم به تأسيس مدارس تخريج الضباط والتى بدأت بمدرسة البيادة بأسوان والتى نقلت الى إسنا بعد ذلك ثم الخانكاه فيما بعد ومدرسة للسوارى فى الجيزة ومدرسة أركان الحرب .

ويلاحظ فى بناء الجهاز التعليمى للجيش المصرى الحديث أكثر من ملاحظة ...

١) فقد بدا حرص محمد على بالغا فى البداية على عدم الاصطدام " بالجيش القديم " ومن هنا جاء اختياره للأماكن البعيدة لانشاء المدارس الجديدة ولكن ما أن تخلص من هذا الجيش حتى جاء بهذه المؤسسات قريبا من العاصمة .. فى الخانكة والجيزة .

٢) اعتمد فى هذه المدارس على الخبرة الأوربية، والفرنسية على

وجه التحديد فمدرسة البيادة ارتبطت باسم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ومدرسة اركان الحرب اقترنت باسم الجنرال بلانا. (٣)

ويعزى هذا فى جانب منه للاعجاب البالغ الذى كان يكنه محمد على للأدارة العسكرية التى بناها نابليون بونابرت والذى كان معجبا به أشد الاعجاب حتى انه لم يترك كتابا عنه الإوقرأه ، كما يعزى فى جانب آخر الى ماحدث بعد عام ١٨١٥ وبعد سقوط الامبراطورية النابليونية وتقزيم أداتها العسكرية مما ترتب عليه ان وجد كثير من الضباط الفرنسين أنفسهم بلا عمل وكانت فرصة لمحمد على فى أن يقدم العروض لهؤلاء لمساعدته فى بناء آله مصر العسكرية الحديثة .

٣) لم يكتف باشا مصر بالخبراء بل حرص على استجلاب الفنون العسكرية الحديثة من خلال البعوث التى كان يرسلها الى أوربا ، فمن بين أربعين عضوا تم ارسالهم الى فرنسا عام ١٨٣٢ تخصص ١٤ فى دراسة الادارة الحربية والبحرية والهندسة العسكرية والمدفعية، ومن بين عشرين عضوا تم ارسالهم الى انجلترا قبل ذلك بثلاث سنوات تخصص أغلبهم فى صناعة صب المدافع .. وهكذا .. (٤)

٤) صحيح أن أغلب هؤلاء الضباط كانوا فى البداية من غير المصريين الا انه مع مرور الوقت دخل المصريون فى هذا السلك الأمر الذى وان تأخر قليلا الا انه حدث على نطاق واسع خلال عهد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) ، وهو الذى قاد بعد ذلك الى الصدام المدوى بين المصريين وغيرهم والذى عرفته الثورة المصرية المعروفة بالثورة العرابية .

ونتوقف فى هذه المناسبة قليلا للإشارة الى أهمية الجيش الحديث فى بناء الوطن المصرى فان قيام أول ثورة مصرية عامة، وليس ثورات الطوائف فيما عرفه العصر العثمانى أو ثورات القاهرة فيما واجهته الحملة الفرنسية .. نقول أن قيام أول ثورة مصرية عامة ، وهى الثورة العرابية ، قد تم على أيدى أبناء هذه المؤسسة الوطنية .

٥) وفى نفس المجال .. مجال تعليم الجيش الجديد فلم يهمل تعليم الجنود ، فقد الحقت مدارس بفرق الجيش ووحدات الاسطول يتعلم فيها جنود البر والبحر القراءة والكتابة والحساب ، وكان يتم تشجيع المتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

وتبدو أهمية هذا الاتجاه من ملاحظة النظام الذى كان سائدا فى الجيش الجديد .. نظام الترقية من تحت السلاح ، وهو نظام كان يسمح بترقية الجنود الى رتب الضباط ، وكان باب التعليم لهذا من أوسع الأبواب التى دخل منها المصريون الى مناصب القيادة فى الجيش الوطنى فى مصر ويقدم الأميرالاى أحمد عرابى نفسه النموذج لذلك !(٥)

الخروج من الشرنقة :

يؤرخ عام ١٨٢٢ لمولد النظام العسكرى الجديد بقرار تجنيد الفلاحين فى الجيش المصرى ففى ١٧ فبراير من هذا العام صدر أمر محمد على بأنه لضرورة اعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم قسوة مناخة " استوجب جمع أربعة آلاف من الوجة القبلى لينضموا الى محمد بك لاظوغلى ناظر الجهادية ، ومن يجمع يرسل الى سليمان بك

أغا (الفرنساوى) معلم الجنود بأسوان لتعليمهم حسب مقتضيات النظام الجديد ، وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع التكليفات..وأنما يعدون من الجنودما داموا على قيد الحياة .(٦)

كانت هذه بداية الدخول المصرى فى المؤسسة الجديدة ، وهو الدخول الذى اتسع كثيرا خلال الثلاثينات ، وذلك لسببين ، أولهما : ما حدث خلال ذلك العقد من حروب مع الدولة العثمانية واتساع للدولة المصرية التى شملت السودان وأغلب شبه الجزيرة العربية والشام حتى ان عدد أفراده عام ١٨٣٧ زاد عن ربع مليون فى بلد كان لا يزيد عدد سكانه عن أربعة ملايين وقتذاك ، والثانى : انه كان من الصعب فى حروب مع الدولة العثمانية الاعتماد على جيش من الأتراك..

أدى ذلك الى الاتجاه لأبناء المدن بعد الريف ويروى لنا ضابط بحرية فرنسى كان فى زيارة للاسكندرية فى أبريل عام ١٨٣١ انه تم تجنيد عدد كبير من التجار الذين قصدوا المدينة خلال ذلك الشهر لحضور سوقها السنوى ، كما انه فى يونية عام ١٨٣٢ تم تجنيد ١٥ ألفا من الرجال من مختلف الأعمار من القاهرة .

على الجانب الآخر يشير المستر باركر القنصل الانجليزى فى القاهرة انه فى أغسطس عام ١٨٣٢ تم تجنيد ١٢٠ قبطى وقد قدر عدد المسيحيين الذين انتظمهم الجيش المصرى بخمسه آلاف جندى . (٧)

وقبل أن نتعرض لآثر التطورات على بناء الدولة الوطنية فى مصر ينبغى التذكير بالظروف التى كان المصريون يعيشون فى ظلها من

قبل وطبيعة النقلة الهائلة التى سببها دخولهم ، أوبالأحرى ادخالهم للجيش المصرى الحديث ..

المصرى الفلاح كان يعيش فى قريته لايغادرها وكان اشبه بقن العصور الوسطى الأوربية يعتمد فى حماية حياته على رجال الحامية العثمانية والتى بعد أن كفت عن آداء هذا الدور فى القرن الثامن عشر كان يرنو الى الحماية من احدى القوى المحلية خاصة من البدو، ولعل العلاقة بين الهوارة والفلاحين فى صعيد مصر تقدم نموذجا على ذلك ، ولم يكن يخطر على باله قط ان يرفع سلاحا فى وجوه هؤلاء ...

أبناء الطوائف فى المدن كانوا يحتمون داخل حارتهم والتى كانت بالنسبة لهم ليس فحسب مكان للعمل او السكنى بل عالم بأكمله لايدرون شيئا مما يحدث خارجه الا النذر اليسير ...

واذا كان إخراج هؤلاء من قراهم أو حاراتهم من الصعوبة بمكان فقد كان خروجهم لحمل السلاح والقتال فى الميادين الأكثر صعوبة ...

تطلب ذلك من حكومة الباشا سياسة جمعت بين الاقناع والشدة ..الاقناع تم من خلال تجنيد العلماء.لحث المصرين على الجهاد ولعل ما ذكره الشيخ خليل الرجبى فى كتابه " تاريخ الوزير محمد على باشا " يقدم مثالا على ذلك ، فقد خصص الشيخ فصلا فى كتابه عن النظام الجهادى الجديد جاء فيه ماقام به " الامير بالقطر من إحضار جند معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار يدرءون الصفوف وترتيب الضربات وصروفها ووجب عليهم تعليم صناعة حرب الكفار ان لم يكن بها إلمام

وتذكار ليدرأ الشر بمثله " (٨)

كما كان من جملة التدابير التى اتخذت لإقناع الجند بشرعية النظام الجهادى الجديد انه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب .

ويجب أن نعترف هنا بأن اشتغال المصريين بشئون الحرب كان يمثل تحولا بمقدار ١٨٠ درجة فى حياتهم التى عرفوها منذ الغزو اليونانى لبلادهم فهم منذئذ كانوا قد ركنوا للأخرين فى حمايتهم وفى نهبهم فى نفس الوقت !

ويجب أن نعترف أيضا أن هذا التحول لم يتم بسهولة ، فقد كان المصريون يتفننون فى التهرب من الخدمة العسكرية خاصة حين عمدوا الى تشويه أنفسهم حتى لايصبحوا لائقين لهذه الخدمة ، فضلا عن أن المفهوم الوطنى لم يكن قد ترسخ بعد وبالتالى وبرغم لجوء محمد على الى اقناعهم بفكرة الجهاد فلم يكونوا متحمسين بدرجة كافية . (٩)
رغم ذلك فينبغى أن نعترف أن سياسات القهر التى اتبعها محمد على فى ضم هؤلاء للجيش الجديد قد أتت بكثير من الثمار على مستوى بناء الوطن المصرى .

فمجموع الحروب التى خاضها هذا الجيش هى التى أدت فى النهاية إلى الوضع المتميز لمصر داخل الدولة تم التوصل اليها بمقتضى مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وفرمان فبراير عام ١٨٤١ ، وهى التسوية التى يتفق كافة المؤرخين على انها كانت القاعدة لبناء الاستقلال المصرى .

وبناء الاستقلال المصرى الذى جد الولاة من أبناء أسرة محمد علي و على رأسهم اسماعيل ، في تشييده ، كان الصرخ الذى نشأت في احضانه الفكرة الوطنية .

على الجانب الأخر فقد ساعد الجيش الحديث على إضعاف اشكال العزلة بين المصريين ، وإذا كانت الحملة الفرنسية قد قامت بخلع أبواب الحارات التى كانت تصنع هذه العزلة فإن الجيش المصرى الحديث قد أخرج المصريين من حاراتهم وقراهم وأدمجهم معافى المؤسسة الجديدة ، وليس من شك ان هذا الخروج كان عنصرا أساسيا من عناصر الاسراع نحو بناء المجتمع المدنى ، فيما يمكن وصده فى أكثر من ظاهرة :

١) فقد أدى الانخراط فى مؤسسة ذات انظمه صارمة مثل الجيش الحديث الى تغير فى مجموع القيم الاجتماعية التى كان يغرسها المجتمع الريفى فقد كان للضبط والربط أهمية قصوى فى النظام الجديد الأمر الذى قرره محمد على فى مرسوم أصدره عام ١٨٢٣ وجاء فيه " لا تسلكوا السبل الملتوية بتجويز الأوضاع المنافية لأصولكم ونظمكم وان وجد فيكم من لايصغى للقول ويسلك هذا السبيل الوعر فلا تقبلوا تطرق الخلل الى النظام بسبب مخالفة واحد منكم وانبذوا من كان على الشاكلة من بين ظهر انيكم إن كان صاحبكم أو من أقاربكم حتى ولو كان أبا لكم وأخا " .

٢) أدى هذا الخروج على جانب آخر إلى كسر هذه الشرنقة التى استمر الانسان المصرى محبوسا فيها ، وكانت شرنقة ريفيه بالأساس،

ولا شك أن الفلاح المصرى قد وجد عالما لم يعرفه قط أسلافه .. عالم المعسكر ، وعالم المدينة سواء فى القاهرة أو الاسكندرية أو سائر المدن التى انتشرت فيها الثكنات العسكرية ، وعالم خارج مصر نفسها فى السودان وشبه الجزيرة العربية والشام .

وإذا كان الفلاح المصرى حين خرج من بلاده خلال الحرب العالمية الأولى قد ابتدع الأهازيج الحزينة تعبيرا عن شوقه وحنينه للوطن ، فلا شك ان تلك الاهازيج كان لها أصول منذ ذلك الوقت المبكر.

بمعنى آخر فإن خروج المصريين من مصر كان لابد وأن يثير وجدهم اليها ليكتشف كل منهم بمكانها فى قلبه وبانتمائه اليها .

٣) فضلا عن ذلك فقد أدى ما ناله أغلب الفلاحين وأبناء الطوائف الذين انضموا للجيش من قدر من التعليم فى داخله الى تغيير ليس فقط فى مفاهيمهم وانما فى رغبتهم فى العودة الى قراهم أو حتى الى حاراتهم .

تشير الى ذلك تقديرات سكان المدن فى الفترة بين عامى ١٨٢١ و ١٨٤٦ فقد زاد هؤلاء من حوالى ٤٠٠ ألفا الى ٦٧٥ ألفا ، وهى زيادة كبيرة بالقياس لنسبة الزيادة من قبل،وكان أغلب من سببوا هذه الزيادة من الجنودمن الفلاحين الذين استقروا فى المدن بعد تسريحهم (١٠)

ولا يمكن الزعم أن التطور الكامل نحو المجتمع المدنى قد أحدثته مؤسسة واحدة هى الجيش المصرى أو تم فى عصر واحد هو عصر محمد

على ولكن ممالا شك فيـه فان مـا حدث فى تلك المؤسسـة أو فى ذلك الجيش كان خطوة كبيرة فى الاتجاه الصحيح .. اتجاه حركة التاريخ !

****

حواشى الفصل السادس

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الأثار فى التراجم والأخبار ج٤ ص ٢٢٢

(٢) Dodwell , H, The Founder of Modern Egypt

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على

(٤) المرجع السابق

(٥) سمير طه : أحمد عرابى - دوره فى الحياة السياسية ص ٢٠

(٦) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير

(٧) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر - محمد على

(٨) خليل الرجبى : تاريخ الوزير محمد على باشا

(٩) هيلين ريفلين : الاقتصاد والادارة مصر فى مستهل القرن التاسع عشر .

الفصل السابع

الافندية قادمون

البعثات
الأفندية وحركة التمدين

الفصل السابع
" الافندية " قادمون !

قبل مجئ الحملة الفرنسية الي مصر لم يكن يوجد بالبلاد سوى احد عشر افنديا ، ليس أكثر !

و" الافندى " كلمة تركية تعنى المولى أو السيد أو الخوجة ويشترط فيمن يتمتع بهذا اللقب أن يكون من حملة القلم من الكتاب والعلماء .

وأولئك الذين كانوا يتمتعون به فى مصر كانت مجموعة من الموظفين الفنيين الذين يعملون فى ديوان الروزنامة، وهو الديوان الذى كان مسئولا عن الأموال الأميرية .

اختلف الأمر كما وكيفا مع بناء الدولة الحديثة ، وهو اختلاف له قصة طويلة وان كان أهم ما نعنى به فى هذه القصة أن الافندية صاروا الركيزة الأساسية التى قام عليها المجتمع المدنى فى مصر .. ركيزة فكرية وسياسية واجتماعية .

ونبدأ بما دخل على " الافندية " من اختلاف بامتداد القرن التاسع عشر ..

الاختلاف بدا فى تغير مفهوم المسمى ، فقد امتد ليشمل أولئك الذين تلقوا تعليما عصريا فى المدارس المدنية التى اقامها محمد على ، سواء من تلاميذ هذه المدارس أو ممن خريجيها الذين اشتغلوا أساسا

بالعمل الحكومى حين نجح هؤلاء فى تكوين طبقة من المثقفين ثقافة عصرية التى يصطلح على تسميتهم بأصحاب الياقات البيضاء THE WHITE COLLARSأحيانا و " المطربشين " أحيانا أخرى تمييزا لهم عن أولئك الذين تلقوا تعليما دينيا والذين كانوا يلقبون بالمعممين وهو اختلاف يستحق الرصد ..

تعليم العباد :

لمحمد على قولة مشهورة وهى أنه عندما تسلم زمام الأمور فى مصر لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من الأقباط، ورغم أخذنا لهذه القولة بتحفظ بحكم وجود الأزهر ومراكز التعليم الدينى الأخرى ، فضلا عن الكتاتيب المنتشرة في أنحاء البلاد الا أنه مما لا شك فيه أن القرن الثامن عشر ، وقد شهد تدهورا فى شتى مناحى الحياة وكان من الطبيعى أن يطول هذا التدهور الحياة الثقافية .

المهم أن باشا مصر أراد أن يخلص من هذه القولة الى اتجاه نيته الى " تعليم العباد لعمار البلاد " على حد تعبير من نقل عنه ، ولأول مرة فى التاريخ المصرى يحدث هذا الربط بين العباد والبلاد فى المجال التعليمى كما سبق وحدث فى غيره من المجالات !

وهذه الصلة بين الجانبين هى التى صنعت ذلك الشكل الجديد من اشكال التعليم الذى عرفته مصر مطلع العصور الحديثة .. التعليم المدنى .

فقد نشا هذا النوع من التعليم فى حضن الادارة المركزية الحديثة التى قامت عليها الدولة المصرية وقد ترتب على هذا ظاهرتان ارتبطتا بالتعليم الجديد ..

فبينما نشأ هذا النوع من التعليم THE NEW LEARNINGفى أوربا فى حضن مايسمى بالحركة الانسانية التى عرفها عصر النهضة وهو تعليم تأثر بهذه الحركة مما أدى الى انصرافه " للعلوم الانسانية " بعد أن كان التعليم خلال العصور الوسطى معنيا بالأساس " بالأفكار الميتافيزيقية " فانه نشأ فى مصر من خلال سياسات حكومية .

وقد ترتب على هذه الظاهرة عزوف أولى عن هذا النوع من التعليم خاصة مع ما كان معلوما من ارتباط التعليم المدنى مع نشأته مع الخدمة فى " الجهادية " وهى خدمة كان المصريون لم يالفوها بعد بل كانوا يكرهونها ويتحايلون للتهرب منها .

ويصف بعض من كابدوا التعليم المدنى خلال هذه المرحلة كيف كانت الحكومة ترسل الحملات الى القرى للقبض على " الصبية ذوى النجابة لترسل بهم الى مدارس الباشا ، ويقدم على مبارك قصة شائقة حول هذه العملية !

الظاهرة الثانية ارتباط هذا النوع من التعليم بالخدمة فى الادارة الحكومية التى أخذت فى التعقد والاتساع وهو ارتباط ربما لا زال قائما حتى يومنا هذا ، ومع استمرار هذه الظاهرة ، ومع ماترتب على دخول

الوظائف الحكومية من فوائد مادية واجتماعية أخذ العزوف يتحول الى قبول بل الى إقبال مما ساد معه قبل نهاية القرن المثل المصرى المشهور " إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه "

المهم أن هذا النوع من التعليم هو الذى أنجب أخيرا الطبقة الجديدة من المثقفين المدنيين .. طبقة الافندية .

وينبغى التنوية هنا أن هذه الطبقة لم تكن وليدة المدارس الحكومية التى أنشأها الباشا فحسب بل كانت وليدة عملية التغيير العام التى شهدتها الفترة الممتدة حتى انتهاء عصر اسماعيل فى شتي مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن الحياة الثقافية .

بالنسبة للحياة الأخيرة فالي جانب المدارس كانت هناك البعثات التى تم ارسالها الى أوربا كذا الطباعة والصحافة ...

البعثات الى الغرب ، أو الارساليات بلغة العصر ، وإن اتجهت بالأساس إلى التخصص فى العلوم الطبيعية الا أنها لم تهمل الدراسات الانسانية مثل العلوم السياسية وعلم الوكالة فى الدعاوى(أى القانون) ،وهو اتجاه تزايد خلال عصر اسماعيل الى حد أن بعثتين من البعثات التى تم ارسالها فى هذا العصر قد تخصص أعضاؤهما فى الحقوق والادارة .

الطباعة التى بدأت مبكرا فى مصر عن أى جزء من العالم العربى الى درجة أن أول بعثة ارسلها محمد على كانت الى إيطاليا

وكانت للتخصص فى فن الطباعة .

صحيح أن الطباعة قد بدأت نفس بداية طبقة الافندية بالعناية بالكتب الدراسية فى العلوم العسكرية والطبيعية ، خاصة فى الطب والرياضيات وجر الأثقال الا أنه مع الوقت بدأت المطابع المصرية تنتج عديدا من الكتب فى العلوم الانسانية ، خاصة تلك الاعمال التى أنكب رفاعة الطهطاوى وتلامذته على ترجمتها .

ويلاحظ أن ترجمة هذا النوع من المؤلفات قد نشط خلال الأربعينات بعد أن تقلص الجيش المصرى وفقا لتسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ وزاد التوجة الى العلوم غير العسكرية بما فيها العلوم الانسانية .. فتم وعلى نطاق واسع نسبيا ترجمة عدد من كتب التاريخ مثل " بداية القدماء وهداية الحكماء " و " قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون " و " نظم الآلى فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك " و " الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر ".

هذا فضلا عن الترجمات فى الجغرافيا أو علم تقويم البلدان بلغة العصر ، وفى الفلسفة حيث أشرف رفاعة بنفسه على ترجمة كتاب " تاريخ الفلاسفة اليونانيين " .

وأهمية هذه الترجمات فضلا عن البعوث انها فتحت أكثر من باب فى اتجاه تكوين المثقف الجديد فى مصر .. المثقف ثقافة مدنية معاصرة وهو الذى اصطلح على تسميته بالافندى .

وبمناسبة البعثات الى الخارج فان كل من شارك فى أى من هذه

البعثات من غير أبناء آسرة الباشا بالطبع ، كان يلقب " بالأفندى " حتى أن محمد على عندما كان يكتب لهم كان يخاطبهم بقوله " قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون " وكان يخاطب المسيو جومار Jomard المسئول عنهم " بناظر الافندى " !

الباب الثالث من ابواب تكوين جماعة الافندية فتحته الصحافة سواء كانت الصحافة الحكومية التى بدأت بالوقائع المصرية فى اواخر العشرينات أو الصحافة الأهلية التى بدأت فى عصر اسماعيل فى أواخر الستينات .

وتتعدد الملاحظات حول دور الصحافة فى تكوين جماعة المثقفين ثقافة عصرية ..

أولى هذه الملاحظات أن الصحافة الحكومية صحيفة " الوقائع " على وجه التحديد لم تكن هى الصحيفة التى عرفتها مصر بعد ذلك والتى يقتصر عملها على نشر القرارات الحكومية والقوانين الرسمية ، بل كانت تؤدى دورا ملحوظا فى العمل الصحفى بمعناه الواسع ووفقا بالطبع لظروف العصر ، وهو ما عبر عنه العدد الأول من الصحيفة بأن ارادة " ولى النعم " رأت أن " تنقح الأخبار وينتخب منها ماهو مفيد وتنتشر عموما مع الأخبار التى تأتى من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى " وتم التوسع فى تلك الأخبار فيما بعد حين كلف رفاعة بك بترجمة بعض مايرد فى الصحف الاجنبية علاوة على " بعض قطع ادبية من الكتب الأوربية ، وانتخاب أخبار الملكية ، وترتيب

الجريدة المصرية بصفة عامة ".

الملاحظة الثانية أنه قد نشأت علاقة جدلية بين الصحافة وبين الطبقة الجديدة ، فبينما قامت هذه الطبقة باصدار الصحف الوقائع أو الصحف الأهلية بعد ذلك ، إذ من المعلوم أن أول صحيفة أهلية مصرية ، وهى صحيفة " وادى النيل " ، كان الذى أصدرها " عبد الله أبو السعود افندى " أحد تلاميذ رفاعة .. نقول انه بينما قامت هذه الطبقة بإصدار الصحف فانها فى نفس الوقت لعبت دورا مهما فى البناء الثقافي لهؤلاء الأفندية .

تبقى ملاحظة أخيرة وهى أن حركة الطباعة أو الترجمة أو اصدار الصحف قد شاركت فيها عناصر غير مصرية التى كونت شريحة هامة من شرائح جماعة الافندية ، خاصة من الأرمن وأبناء الليفانت(سوريا) ، وقد عاون على اندماج هؤلاء فى الجماعة الجديدة عثمانيتهم . فهم لم يعتبروا فى أى الأحوال غرباء ، ثم درايتهم المبكرة باللغات الأجنبية والتى اكتسبوها فى بلادهم من التعليم فى مدارس الارساليات الأجنبية .وبهذه المناسبة فان تلك المدارس التى لم تلبث أن انتشرت فى مصر خاصة خلال عصر اسماعيل

قد ساعدت بدورها على أضافة شريحة جديدة للأفندية المثقفين ثقافة مدنية وأن كانت الشريحة الأكثر فرنجة !

الافندية وحركة التمدين :

التعجيل بالدور التمدينى للافندية المصريين لم يحدث على النحو المتوقع لأسباب ...

من هذه الأسباب أن أغلب فترة محمد على شهدت لونا من حبس هذه المجموعة داخل صدفة الجيش ، وهو حبس لم ينصرف فحسب الى الجانب المكانى أى المدارس الحربية أو الثكنات أو ميادين الحروب ، وانما امتد الى الجانب النوعى فانصرفت اهتماماتهم أكثر ما انصرفت الى العلوم العسكرية أو الطبية أو الطبيعية .

منها أيضا أن الأفندية ورغم الجهاز التعليمى الكبير الذى اقامه الباشا فان قاعدتهم لم تكن قد اتسعت بعد ، خاصةوان هذا الجهاز خلال عهد محمد على استمر هو القائم وحده تقريبا بعملية تخريج هولاء المثقفين ثقافة مدنية .

وليس من شك ان افندية عصر محمد على قد استمرأوا كونهم أقلية محدودة تحتكر هذا اللون المستجد من الثقافة ، خاصة وأن هذا الاحتكار شأنه شأن أى احتكار اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو سياسيا ، يخلق امتيازات للجماعة المحتكرة ، مما بدا فى افندية الباشا الذين شكلوا لونا من الأرستقراطية الثقافية والوظيفة انعكست على مكاسبهم الاجتماعية .

بيد انه مع اتساع القاعدة على عصر اسماعيل اختلف وضع الافندية وأصبحوا ركيزة اساسية فى صناعة المجتمع المدنى فى مصر ،

بيد أن كل ذلك لايمنع من تقرير حقيقة مؤداها أن الباشا الكبير هو الذى وضع الأساس .

يبدو هذا الاتساع فى جانب منه فى توسع الحكومة فى فتح المدارس الابتدائية التى وصل عددها الى ثلاثين مدرسة ابتدائية فضلا عن المدارس الثانوية ، وقد شهد هذا العصر لأول مرة فتح مدارس البنات ، وبالمناسبة فقد كانت خريجات هذه المدرسة تتمتعن بلقب الأفندى أيضا ، فيقال عليه افندي أو خديجة افندي .. وهكذا ...

وينبغى أن نلاحظ هنا أن التعليم الحكومى فى عصر اسماعيل وان استمر يسير على نفس خطوط التعليم على عصر جده من ناحية كفالة الطلاب من خلال النظام الداخلى ومن ناحية توفير الوظائف لهم فى الادارة الحكومية الا أنه قد اتخذ فى هذا العصر طابعا قوميا وليس الطابع العسكرى الذى غلب على العصر الأول .

على الجانب الثانى بدا هذا الاتساع من خلال الاقبال على اقامة المدارس الخاصة التى يفتتحها القادرون من الاهالى وكان فى طليعتهم أبناء أسرة محمد على نفسه ، فوالدة عباس الأول أنشات مدرسة الصليبة وكبير أغاوات والدة اسماعيل اقام المدرسة التى تسمت باسمه . مدرسة خليل أغا ، الأمير محمد توفيق أنشأ مدرسة القبة على نفقته الخاصة وهكذا ، هذا فضلا عن المدارس الأهلية التى أقامتها بعض الطوائف ، خاصة الأقباط ، فقد اقام هؤلاء فى القاهرة وحدها ١٢ مدرسة بمساعدات من الخديو نفسه ..

ثم ان هذا العصر الذى عرف قدوم المهاجرين الأوربيين على نطاق لم يحدث من قبل فى التاريخ المصرى الحديث قد عرف مدارس الارساليات التبشيرية والتى دخلها المصريون جنبا الى جنب مع أبناء الأجانب وأسهمت بدورها فى تخريج الافندية ، وأن كانو الأكثر فرنجة كما سبقت الاشارة ، وتشير الاحصاءات الى ان هذا النوع من المدارس قد ناف عن سبعين مدرسة .

وأدى اتساع قاعدة الافندية على هذا النحو الى ترك العديد من البصمات على صناعة المجتمع المدنى فى شتي جوانبة ..

أولاً ففى عملية العمران التى شهدها عصر اسماعيل وهى عملية مـا كـان يمكن أن تتم فى بعض جوانبهادون وجود هذه القاعدة من الافندية .

فاذا كان الامتداد العمرانى الذى شهدته الاسكندرية فى هذا العصر يعزى بالأساس الى الوجود الأوربى فان الامتداد العمرانى للعاصمة يعزى فى جانب كبير منه الى جماعة الافندية الذين قطنوا فى الأحياء الجديدة ذات الشوارع المرصوفة والمنارة بمصانع الغاز فضلا عن استمتاعها بأنابيب المياة العذبة .

ويلاحظ أن هؤلاء مع الأوربيين كانوا عماد المؤسسات الفنية والثقافية التى انتشرت فى هذا العصر ، سواء فى الأوبرا أو فى المسارح أو فى الجمعيات العلمية مثل الجمعية الجغرافية أو جمعية المعارف أو غيرها فضلا عم الصالونات الأدبية التى انتعشت فى تلك

الفترة .

انعكست زيادة قاعدة الافندية على حققة أخرى وهيى أنه بعد أن كان هؤلاء جميعا فى عصر محمد على من موظفى الحكومة فقد ظهرت شرائح جديدة منهم فى عصر اسماعيل ..

ظهرت شريحة اصحاب المهن الحرة من الصحفيين والمحامين خصوصا بعد أن تم التوسع فى هذا العصر فى الأخذ بمجموعات القوانين المدنية مما أدى الى فتح مدرسة الحقوق عام ١٨٦٨، فضلا عن الأطباء والمهندسين وان كان من الملاحظ أن أغلب العاملين فى هذين القطاعين الأخيرين كانوا وقتذاك من غير المصريين ، خاصة الايطاليين واليونانيين

وظهرت أيضا شريحة فيما أصبح يسمى الآن القطاع الخاص، وكان اغلبه ملكية أجنبية مثل البنوك وشركات الرهونات والشركات التى تعمل فى ميدان العقارات عن البيوت التجارية ، وان كنا نلاحظ أن أغلب الأفندية الذين اشتغلوا فى هذه المؤسسات كانوا من خريجى مدارس الارساليات .

على أى الأحوال فقد ترتب على وجود هذين القطاعين الجديدين من الافندية ، أصحاب الأعمال الحرة ، أن زاد تأثير الافندية فى الحياة العامة على نحو غير مسبوق ، وتقدم الصحافة والحركة الوطنية نموذجا لهذا الازدياد .

الصحافة التى أخذت فى الانتشار منذ اواخر الستينات ومع

مايمكن أن يقال عن ان اسهام المصريين فيها كان محدودا بالقياس الى اسهام السوريين مثلا الا ان القائلين بهذا يتناسون أكثر من حقيقة ..

الحقيقة الأولى أنه لولا وجود هذه القاعدة العريضة من الافندية لما قدر لأية صحيفة من تلك الصحف التى أصدرها السوريون أن تعيش فالصحيفة دون قراء لا تستمر والقراء هنا هم الافندية .

ويلاحظ هنا أن سياسات تلك الصحف قد تأثرت باتجاهات قرائها أكثر من أى شئ آخر يدل على ذلك الموقف الوطنى المتشدد لجريدة مثل " التجارة " التى كان يصدرها أديب اسحق وكان سوريا .

الحقيقة الثانية : حقيقة أن السوريين هم الذين أصدروا الصحف وربما رأسوا تحريرها فى بعض الحالات، الا انه يبقى دور التحرير والترجمة والتصحيح وسائر العمليات اللازمة لإصدار الصحيفة وكان من يقوم بها هم الافندية المصريون .

الحقيقة الثالثة : انه لم يمض وقت طويل حتى دخل المصريون ميدان اصدار الصحف الأهلية مثل جريدة روضة الأخبار التى أصدرها محمد أفندى أنسي وجريدة الوطن التى أصدرها ميخائيل افندى عبد السيد .

نأتى بعد ذلك للحركة الوطنية والمثال الذى نختاره فى هذا الصدد جمعية مصر الفتاه التى تأسست فى أواخر عصر اسماعيل والذى يقدم برنامجها نموذجا لتأثير الافندية على تمدين الفكر السياسى المصرى .

فقد طالب هذا البرنامج فى جانب منه بتطبيق مبدأ فصل

السلطات " إجرائية وقضائية " كما طالب بارساء مبدأ المسئولية الوزارية و " المساواة بين عموم المصريين أمام الشريعة " وصيانة الحرية الشخصية والملكية الخاصة وحرية العبادات .

صحيح ان مثل هذه الأفكار قد تم تداولها من قبل خاصة فى كتابات رفاعة الطهطاوى ولكن أن تتم المطالبة بتطبيقها فهذا هو الجديد ، وهو جديد يصنع مغايرا بافكار جد مختلفة ، هو المجتمع المدنى الذى اقامه الافندية ، والذى تأكدت زعامة أصحاب الطرابيش له بعد أن كانت من قبل معقودة لغيرهم .

****

حواش الفصل السابع

(١) د. أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ص. ٢٠-٢٣

(٢) محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد على ص ٩٥

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج١ ص ٢١٤

(٤) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى اوائل حكم توفيق ج ١

(٥) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر .

(٦) أحمد خاكى : رفاعة الطهطاوى مترجما - ندوة كلية الالسن ١٩٧٦

(٧) ابراهيم عبده : الوقائع المصرية

(٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج١ ص ١٩٩

(٩) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق

(١٠) نفس المرجع

(١١) نبيل عبد الحميد : الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى ١٨٨٢-١٩١٤ الفصل الثالث

(١٢) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ج١ ص ١٩٨

(١٣) د. ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية .

(١٤) د. على شلش : جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ - دراسة وثائقية

الفصل الثامن

مجتمع الطوائف .. وداعا !

أولا الذوات

فئة الميرى

الوفود الأجنبى

الانسحاب

الفصل الثامن
مجتمع الطوائف .. وداعا !

اذا كانت ابواب الحارات التى ضمت داخلها الطوائف قد اقتلعت فى أواخر القرن الثامن عشر على ايدى رجال الحملة الفرنسية ، وإذا كانت الحكومة المركزية قد وصلت بموظفيها ودفاترها إلى أعماق القرى وقلب الحارات خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فأن كل ذلك لم يؤد الى القضاء على مجتمع الطوائف وان كان قد زعزع من ركائزه !

ولما كان هذا المجتمع قد اكتسب سماته بامتداد قرون العصور الوسطى ونتيجة للظروف التاريخية لتلك العصور ، فأنه حتى يختفى كان يحتاج لوقت غير قصير تتغير فيه المنظومة العامة التى تسببت فى وجوده .

ويمكن القول أن ملامح هذا التغيير قد تخلقت فى عصر الخديو اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) وتعمقت فى عهد الاحتلال ، حتى أنه لم تأت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) الا وكان المجتمع الطائفى قد شحب تماما وان تبقى منه بعض الرموز ، خاصة فى الأسماء.

وتبدو درجة هذا الشحوب عندما يلاحظ أن غالبية الأسماء التى كان لها دلالة طائفية لم تعد لها مثل هذه الدلالة بعدئذ ، فالحداد والسقا والنجار والشماع لم يعودوا كذلك. ثم أن المغربى أو التونسى أو الجزايرلى وكان لهم جميعا طوائف فى القاهرة لم يقلوا فى مصريتهم عن

الطنطاوى ، أو الدسوقى أو الأسيوطى !

وتتعدد روافد تغيير المجتمع الطائفى وإن كان أهمها فيما نراه اعادة تشكيل التركيبة الاجتماعية فى مصر نتيجة للمتغيرات الاقتصادية التى بدأها محمد على ثم استمرت قدما بامتداد القرن ..

المتغييرات الاقتصادية باختصار شديد تمثلت فى أعادة بناء الزراعة المصرية على خطوط رأسمالية ، بزراعة الحاصلات النقدية ودخول السوق العالمية ، وبمحاولة مبكرة بادخال نظام المصن Factory System † وإن لم تؤت أكلها على النحو المرجو ، وما ترتب على دخول السوق العالمية من وفود رؤوس الأموال الأجنبية بكل مؤسساتها الحديثة . وكان محتما أن تنعكس كل هذه التغييرات على الهياكل الاجتماعية القائمة فتنشأ طبقات اجتماعية جديدة لم تكن قائمة وتختفى قوى اجتماعية قديمة على رأسها الطوائف ، حرفية كانت أو عرقية أو دينية .

اولا : الذوات :

النتيجة المنطقية لانتاج المحاصيل النقدية أن تحولت الأراضى الزراعية فى مصر الى " سلعة رأسمالية " الأمر الذى كان لابد وأن يعقبه ظهور الملكية الخاصة لتلك الأراضى بعد أن استمرت بامتداد القرون السابقة ملكا لولى الأمر ، خليفة كان أو سلطانا .

ولم يتأخر هذا التحول طويلا حين نشأت شريحة الرأسمالية الزراعية من كبار ومتوسطى ملاك الأراضى التى شكلت القطاع العلوى

من الطبقة الوسطى المصرية الجديدة ..

ويلاحظ أن أغلب فئات هذه الشريحة كانت تعيش فى المدن وليس فى الريف قرب ممتلكاتها سواء بسبب أن فئة كبيرة منها جاءت من المدينة وتمثلت على وجه التحديد فى كبار الموظفين أو لأسباب أخرى .فقد استن محمد على تقليداً توسع فيه اسماعيل ، وهو تقليد إنعامات " ولى النعم " والتى لم تكن سوى مساحات من الأراضى الزراعية كانت تتراوح بين مئه وألف فدان .

ومع مضى الوقت نشأ من هؤلاء فئه أساسية من شريحة الرأسمالية الزراعية ، وهى الشريحة التى اصطلح على تسميتها " باولاد الذوات " ، والتى كانت بحكم نشأتها عنصرا مدينيا .. مدينيا لأنها فى أول نشأتها تشكلت فى معظمها من العناصر غير المصرية ، التركية خصوصا ، ولم يكن لهؤلاء أية علاقة بالريف، مدينيا بحكم انتماء فئه الموظفين للمتعلمين تعليما مدنيا من خريجى المدارس الحديثة وأبناء البعثات ومدينيا أخيرا بحكم إن طبيعة عملهم كانت تقتضى بقاءهم فى المدينة رغم وجود مصالحهم الاقتصادية فى الريف .

ومع وجود مايبرر أن تكون هذه الفئة من شريحة كبار ملاك الأراضى من سكان المدن فاننا نلاحظ أنه حتى بعد أن شاركت فئات أخرى هذه الفئة اقتناءها للملكيات الزراعية الواسعة ، ومع أن هذه الفئات الجديدة قد جاءت من أصول مصرية وريفية قحة الا أنه لم يمض وقت طويل حتى جاءت الى المدن .

جاءوا الى المدن لتسويق حاصلاتهم ، وجاءوا الى المدن للاشتراك فى بعض المشاريع التجارية ، وجاءو الى المدن للاستمتاع بمباهج الحياة فيها ، وجاءوا الى المدن أخيرا للمشاركة فى الحياة السياسية خاصة بعد أن تأسس مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ من " المشايخ الحايزين على الأوصاف المعتبرة" ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لهؤلاء بيوت دائمة فى العاصمة يقضون فيها الجانب الأكبر من العام مثل محمد سلطان ومحمود سليمان وغيرهم ، ويروى لنا أحدهم وهو فخرى عبد النور الذى صدرت مذاكراته مؤخرا ظروف خروجة الى المدينة من أنه خلال عام ١٨٩٦ وأثناء تقدم الجيش المصرى لاستعادة دنقلة فقد اشتغل من مدينة جرجا بدور المتعهد الاساسى لتموين هذه القوات باحتياجاتها ، ولم يمر سوى وقت قصير بعد ذلك حتى جاء الى القاهرة لرعاية مصالحة وأقام له بيتا فى العباسية استمر يقضى فيه حتى أواخر حياته فترة غير قصيرة من العام !

الشريحة الوسطى من الطبقة الوسطى الجديدة التى عاشت فى المدن جاءت فى مجملها من الموظفين ، وموظفى الحكومة على وجه التحديد بحكم أن " الميرى " استمر أكبر صاحب عمل فى تاريخ مصر الحديث .

ورغم ما أصاب هذه الفئة من تناقص نسبى فى فترة الاحتلال لسياساته الداعية الى الحد من النفقات الى أقصى حد ممكن لمواجهة أعباء الديون ، وهى سياسات استهدفت بالأساس المصريين قبل غيرهم

.. رغم ذلك تشير الاحصاءات الى أن هذه الفئة استمرت كبيرة الحجم الى حد ملحوظ .

فقد بلغ عدد موظفى الحكومة ٥٩٦و١٤وذلك في عام ١٩١١ واذا لاحظنا أن كل أسرة من أسر هؤلاء كانت تعيش تقريبا في منزل شبه مستقل يمكن ادارك الحجم الذى اضافة هؤلاء للمدن التى قطنوها فى القاهرة والاسكندرية بالأساس ثم فى بقية حواضر المديريات .

وينخرط فى نفس هذه الفئة أعداد من خريجي المدارس الحديثة الذين لم يعملوا " بالميرى " وقد تزايد هؤلاء خصوصا فى عهد الاحتلال سواء بسبب أن الادرات الحكومية لم تعد تستوعب كل خريجى المدارس الأميرية أو نتيجة للتوسع فى التعليم الأهلى ومدارس الارساليات وقد عمل هؤلاء فى المهن الحرة أو فى الأعمال الحرة خاصة فى المؤسسات الأجنبية .

عرفت مصر في نفس الفترة الوفود الأجنبى الواسع ، وهو وفود لم تنجو بلد فى مصر منه وان كانت القاهرة والاسكندرية ومدن الوجه البحرى قد عرفته بشكل أوسع كثيرا .

وكان التركز الأوربى فى المدن طبيعيا بحكم نوعية النشاطات الاقتصادية التى مارسها الأوربيون فى مجالات الأعمال المالية والتجارية وبعض الأعمال الصناعية .

ويبدو تسارع الوفود الأوربى الى مصر بملاحظة إنه بينمالم يكن يوجد فى البلاد قبل الحملة الفرنسية أكثر من مائة إوربى فقد زاد

عددهم فى اواخر عصر محمد على الى أكثر من سته آلاف قليلا وتضاعفوا فى اواخر عصر سعيد الى نحو ٣٤ ألفا ووصلوا أواخر عصر اسماعيل الى ٨٥ ألفا ووصلوا قبيل الحرب الى أكثر من ١٧٠ ألفا .

وقد صحب كل هذه التغييرات تحديث طرق المواصلات سواء بشق الطرق أو بمد الخطوط الحديدية على نحو زاد كثيرا من اهمية بعض المدن الواقعة على مفارق هذه الخطوط مثل طنطا والمنصورة وبنها ، أو بشق قناة السويس التى وضعت على خريطة مصر مدنا جديدة مثل الاسماعيلية وبورسعيد والزقازيق التى أصبحت فى الطريق الى مدن القناة ، وغيرت من شكل مدن قديمة مثل السويس .

وكان لكل هذه التغييرات مردوداتها فى شكل المدينة المصرية ، فقد حولت نمط العصور الوسطى الذى استمر سائدا فيها الى نمط جديد..

لقد أصبح فى أغلب المدن المصرية السابقة مدينتان .. احداهما المدينة القديمة والثانية مدينة حديثة ، وبينما استمرت للمدينة القديمة بعض سماتها فان المدينة الجديدة قد برأت من هذه السمات وقد انتصر نمط المدينة الجديدة فى النهاية .

ففى القاهرة نشأ الى جانب الأحياء القديمة أحياء جديدة فى الظاهر والفجالة وشبرا والاسماعيلية حتى قصر الدوبارة ، كما توسعت المدينة ناحية الغرب خاصة بعد مد الكبارى كوبرى ربط الروضة بالجزيرة، وآخر ربط الروضة بالقصر العينى وثالث ربطها بمصر القديمة فى نفس الوقت نشأت أحياء تركز الأجانب فيها بدأت بالأزبكية ثم انتقلت

الى جاردن سيتى التى خططت على النمط الانجليزى(الشوارع الدائرية) والزمالك وهليوبولس (مصر الجديدة) التى خططت على النمط الفرنسى (الشوارع المتقاطعة والبيوت ذات البواكى).

ويصف أحد الرحالة الأوربيين حى الأزبكية فى اواخر القرن بقوله : " أصبحت الازبكية حديقة غناء مليئه بالنافورت والأشجار والمقاهى وأقيم فيها نادى للمبارزة يديرة فرنسى ، وأقيمت الفنادق حول مربع الأزبكية مثل شبرد والفندق الشرقى الكبير وغيرها ، بالاضافة الى أن اليونانيين والأوربيين فتحوا محلاتهم فى الشوارع المجاورة وملاؤها بالماكولات الأوربية ، فترى محلات الحلوى السويسرية وتتصاعد روائح الأفران اليونانية الى جانب توفير كافة وسائل الراحة للأوربيين "!

وقد صحب اتساع المدن على هذا النحو ظواهر جديدة لم تكن معروفة فى المدينة المصرية حتى مطلع القرن التاسع عشر .

من هذه الظواهر نشوء المواصلات الحديثة ، عربات سوارس ثم الترام فى مطلع القرن ثم المترو فى الربط مع الضواحى البعيدة ، فى مصر الجديدة فى القاهرة والرمل فى الاسكندرية .

منها أيضا دخول المرافق العامة التى لم يكن يعرفها نظام الحارات الماء فى الأنابيب بدلا من نظام السقا القديم ، ومصابيح الغاز بدلا من الشموع والقناديل .. وكان لكل من هذه الخدمات القديمة طائفتها ، السقايين والقربية والشماعين والقناديلية !

ومع كل هذه الظروف كان متوقعا أن ينحسب النظام الطائفى فى

مصر من على الساحة فقد أدى وظيفته التاريخية التى لم يعد لها وجود

الانسحاب :

ظهور المدينة الحديثة فى مصر على هذا النحو المغاير أدى الى حصار النظام الطائفى القديم ثم الى تصفيته ،وهو حصار امتد الى الطوائف الحرفية ثم الى الطوائف العرقية وأخيرا الى الطوائف الدينية ..وبشكل عام فان هذا الظهور أدى الى خلخلة شديدة فى التماسك الذى كان يميز النظام الطائفى ، فقد ترك كثير من أبناء الطوائف فى بحثهم عن أسباب الرزق التى توفرت فى المناطق الحديثة من المدن .. تركوا حاراتهم ليعملوا خارجها ، وهم فى هذا الترك هجروا حرفهم الأصلية خاصة بعد أن تدهورت ولم تعد تجمعهم بحاراتهم سوى كونها أماكن للسكنى، وحتى هذا تركوه أحيانا عندما كانت تتوفرلهم السكنى خارج الحارة ، خاصة اذا ما تحسنت أحوالهم وراودتهم التطلعات للانتماء للطبقات الاجتماعية الجديدة التى قطنت فى الأحياء الجديدة من المدن .

ثم أن تزايد حجم المدن المصرية خلال القرن التاسع عشر على نحو غير مسبوق الى حد أن تعداد مدينة القاهرة قد زاد عن نصف المليون أواخر القرن التاسع عشر، وضع الطوائف فى موضع العجز الكامل عن ملاحقة التغييرات أو الاحتفاظ باحتكاراتها القديمة .

الطوائف الحرفية سواء كانت طوائف انتاج أو طوائف خدمات بدا دورها يتقلص مع مرور الوقت لقد أخذت طوائف بعينها فى الاختفاء

وأخذت طوائف أخرى فى التدهور فطوائف مثل تلك التى كانت تشتغل بانتاج الأوانى النحاسية وصناعة العاج والحفر على الخشب أو المعدن وأعمال الصباغة بلون النيلة قد أخذت فى الأختفاء ، وطوائف مثل تلك التى امتهنت صناعة النسيج قد تدهورت الى حد كبير بسبب اغراق السوق المصرية بالمنسوجات الأوربية ففى بلد مثل أسيوط اشتهرت بهذه الصناعة انخفض عدد الأنوال خلال سنوات قليلة من ٣٠٠ نولا الى ٧٠ نولا.

هذا عن الطوائف الحرفية الانتاجية ، أما عن الطوائف الحرفية الخدمية ، فيقدم ماحدث لطائفة السقايين فى الاسكندرية نموذجا لما أصابها ..

فقد أنشئت شركة لتزويد المدينة بالمياه النقية خلال النصف الثانى من القرن ، وفى عام ١٨٩٤ صدر قرار بتحويل السقايين الى عمال أجراء فى المجلس البلدى ، وكان هذا الاجراء بمثابة خطوة لانهاء وجود هذه الطائفة حتى أنه لما صدر فى اواخر العام نفسه تعليمات جديدة لهؤلاء من مجلس بلدى الاسكندرية لم يرد فيها ذكر طائفة السقايين بتاتا .

نفس النتائج انعكست على طوائف التجار فقد تحولت طرق التجارة الخارجية التى كانت تتحرك قبل القرن التاسع عشر فى نطاق عالم العثمنلى لتتخذ وجهة أخرى ، والى الغرب هذه المرة ، حيث أصبح تصدير القطن الى أوربا واستيراد السلع الصناعية منها هو العمل

الرئيسى للتجارة الخارجية وأصبح اليونانيون وغيرهم من الأوربيين أكبر المصدرين والمستوردين .

وقد انحصرت الطوائف التجارية فى وكالاتها القديمة ، ومع تغير أنماط الاستهلاك لم تعد سلع هؤلاء تلقى الرواج السابق ، وتقدم طائفة العطارين نموذجا على ذلك ، فلما كانت هذه الطائفة مع تجار الحرير والبن تقدم أهم طوائف ذلك العصر، فان متابعة ما أصابها يفسر ما جرى لطوائف التجار عموما

فمع انتشار الصيادلة بعد افتتاح مدرستها منذ عام ١٨٣٠ وهم وان كانوا قد اشتغلوا فى البداية فى الجيش الا أنهم انتشروا بعد ذلك فى المصالح الحكومية ، وعندما اتى الأوربيون وبدأوا يفتتحون الصيدليات (الأجزاخانات) وبدا بالتدريج يلجأ اليها الناس للحصول على احتياجاتهم فقد العطارون أهم باب من أبواب رزقهم وأخذت الطائفة تتقلص ثم تنحصر فى مجموعات قليلة من العاملين فى هذه التجارة الشرقية القديمة .

ويلاحظ فى هذا الصدد انه مع تعاظم الادارة الحكومية أصبح باستطاعة الدولة ان تستغنى عن طوائف الحرف من حيث هى وسيط بين الحكومة وبين عمال الطوائف ، وتقلصت تدريجيا مهام الطائفة الادارية والمالية والأقتصادية إلى أن فقدت معظمها ، وأخذ فى الأختفاء من على خريطة المدينة المصرية أسماء طالما كان لهارنين من قبل مثل شيخ الطائفة وشاهبندر التجار!

وإذا كان ما أصاب الطوائف الحرفية أو طوائف التجار من تآكل قد استغرق وقتا فان الأمر لم يتطلب كل هذا الوقت بالنسبة للنظام الطائفى فى جوانبه العرقية والدينية اللهم الا اذا كان له طابعه الاقتصادى كأن يعمل المغاربة فى تجارة البن أو أن يعمل الأقباط فى صناعة وتجارة الذهب .

أذا أخذنا المغاربة كنموذج للطوائف العرقية فتشير الكتابات الى انه كان لهم خلال القرن الثامن عشر أخطاط خاصة فى مناطق بعينها فى أسواق طولون والجمالية والعدوية والفحامين ووكالة الكحكيين وخطوط البندقية والأشرفية وباب الشعرية وقناطر السباع .

ومع ما أصاب الوجود المغربى من انحسار خاصة بعد أن تعرضت أغلب دول المغرب للهجمة الامبريالية الفرنسية التى أتت عليها كلها ومن ثم جرى تحويل وجه المغرب العربى شطر أوربا بدلا من الشرق الاسلامى . ومع تآكل موكب الحج نتيجة لوجود طريق بحرى مباشر عبر قناة السويس بعد افتتاحها (١٨٦٩) ، كان من السهل أن ينصهر المغاربة فى جموع الشعب المصرى وتختفى طوائفهم ويخرجون من الحارات الى مجتمع المدينة الجديدة ولا يحملوا من ذكريات الطائفة الا أسماء الأجداد!

أما الطائفية الدينية فقد انطبقت على اليهود كما انطبقت على الأقباط الذين خرجوا من حاراتهم القديمة .. حارة اليهود وحارة النصارى .

وإذا كان اليهود بعد أن خرجوا من حارتهم انتشروا فى الأحياء

القريبة مثل الظاهر والسكاكيني ، وأن كان بعضهم ممن نال قدرا من الثراء قد انتقل للأحياء الراقية التى قطنتها غالبية أوربية، الا أن الأمر اختلف مع الأقباط .

فقد تركز الأقباط حتى القرن الثامن عشر فى المنطقة الواقعة بين خان الخليلى والخليج المصرى وهى الصاغة حاليا ، كما كان يشرف على بركة الأزبكية حيهم المعروف بحارة النصارى ويصفه أحد المعاصرين بقوله : " كانت دوره كبقية دور القاهرة حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط وهو الطراز السائد لأحياء القاهرة " .

وعندما خرج هؤلاء من حارتهم قد استمروا يشكلون عنصرا اساسيا من الطبقة الوسطى الجديدة فقد اتجهوا أساسا الى الأحياء التى قطنها أبناء هذه الطبقة فى الفجالة وشبرا وروض الفرج والساحل وان كان يسترعى النظر هنا أمران ..

الآمر الأول : أن القطاع العلوى من أبناء هذه الطبقة ظل يتنقل فى سكناه تبعا لتنقل مناطق سكنى الأرستقراطية المصرية ، فى العباسية أو مصر الجديدة أو الزمالك .

الأمر الثاني : أن كثيرين من الأقباط الذين انتشروا فى تلك الأحياء لم يكونوا فى الأصل من أبناء حارة النصارى فى القاهرة وانما وفدوا اليها ضمن من وفد الى العاصمة المصرية من سائر أنحاء البلاد ، خاصة من الصعيد .

وكيفما كان الامر فان هذه النقلة السكنية التى عبرت بدورها عن

مجموع المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية انما كانت بمثابة الاعلان عن وجود مجتمع جديد هو المجتمع المدنى حيث يتعايش أبناء الأعراق والأديان المختلفة فى نسيج متشابك وكانت فى نفس الوقت بمثابة الاعلان عن دفن النظام الطائفى وليد الظروف التاريخية للعصور الوسطى ، وهى ظروف غير قابلة لإعادة الخروج من الأكفان .!

****

حواشى الفصل الثامن

(١) د. رءوف عباس : الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى ص ٢٨

(٢) د. يونان لبيب رزق : قصة البرلمان المصرى ص ١٤

(٣) مذكرات فخرى عبد النور ، تحقيق د. يونان لبيب رزق .

(٤) تقرير اللورد كتشنر عن عام ١٩١١

(٥) نبيل عبد الحميد : الأجانب واثرهم فى المجتمع المصرى ٢٨٨٢ -١٩١٤

(٦) Issawi , Charles : Egypt at Mid-century

(٧) ج. بير : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة (الفصل ٩)

(٨) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ص ٥٠

(٩) رياض سوريال : المجتمع القبطى فى مصر فى القرن التاسع عشر .

الفصل التاسع

المطربشون زعماء

عرابى بين العمامة والطربوش
تقدم المطربشين
الزعامة للمطربشين

الفصل التاسع

المطربشون زعماء

رصد تركيبة الزعامة السياسية فى مصر بامتداد أكثر من قرن قليلا يشير الى أن تغييرا جوهريا دخل على هذه الزعامة ..

نبدأ بشهر مايو ١٨٠٥ حين عقدت الزعامة السياسية للمصريين اجتماعا فى بيت القاضى اعلنوا فيه عزل الباشا الذى ولاه السلطان وتولية آخر هو محمد على ليكون واليا " بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير " وكانت ذروة من الذرى التى وصلت اليها الزعامة السياسية فى مصر فى مطلع القرن ، وكانت زعامة دينية بالأساس تتشكل من مثلث متساوى الأضلاع .

قاضى القضاه الذى اجتمعوا فى بيته والذى كان يلقب أيضا بقاضى عسكر أو شيخ الاسلام ، ممثلا للمؤسسة الدينية الرسمية ، فقد كان تركيا يعينه السلطان وكان فى مكانته يلى الباشا ، السيد عمر مكرم نقيب الأشراف بكل مايوفره له انتماؤه للنسب النبوى الشريف من مكانه ، وأخيرا الشيخ الشرقاوى وعدد من مشايخ الأزهر ممثلين للمؤسسة الدينية الشعبية .

ولانجد أفضل من توصيف المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى لهذه الزعامة اذ يقول فى موقع " وكب المشايخ الى بيت القاضى واجتمع

به الكثير من المتعممين والعامة .. ويصف فى موضع آخر الاجتماع " بمجلس الشرع " وهى فى مجموعها أمور تنم عن طبيعة الزعامة المصرية وقتذاك وهى طبيعة متسقة مع ظروف العصر .

وتمر السنون وتجرى مياه كثيرة تحت الجسور لنرى تغييرات قد اخذت تتسلل الى الزعامة السياسية المصرية ، وهى تغييرات لم تصل الى ثورة ١٩١٩ الا وقد أصبحت جذرية ..

عرابى بين العمامة والطربوش :

الفكرة السائدة أن الحركة الوطنية ضد التدخل الأجنبى التى قادها الزعيم المصرى أحمد عرابى هى حركة الضباط المصريين " المطربشين وحدهم ،وهى فكرة غير صحيحة ، فهؤلاء لم يكونوا قد نضجوا بعد للأستيلاء على الزعامة السياسية للمصريين .

يؤكد هذا مجموعة من الدلالات :

١) أن الضباط (الافندية) قد تولوا زعامة الحركة من مواقعهم فى الجيش ، وهى مواقع وظيفية بالأساس ، أكثر منها مواقع سياسية .

٢) أن الشريحة المتحركة فى زعامة الثورة تشكلت من المعممين على رأسهم خطيب الثورة المعروف " الشيخ عبد الله النديم " ومفكرها " الشيخ محمد عبده " وآخرون وأن لم يكن لهم نفس صيتهما مثل الشيخ أحمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ أحمد العوام وآخرين .

٣)ان قراءة خطب زعماء الثورة ومذكرات الزعيم احمد عرابي تشير الي درجة تأثيرها بأفكارالنديم وعبده وغيرهما كانت أكبر كثيرا

من تأثرها بالأفكار الحديثة .. ففكرة الشرعية المستمدة من قبول السلطان العثمانى استمرت أكبر كثيرا من فكرة الشرعية المستمدة من الدفاع عن الوطن أو الدستور وما الى ذلك من أفكار الحداثة التى قبلتها زعامة الثورة العرابية الا انها لم تستشعر بكفايتها بمعنى آخر أن الشرعية الدينية استمرت أسبق على أية شرعية آخرى .

يؤكد ذلك أن الجمعية العمومية أو " المجلس العرفى " بتعبير العصر والذى انعقد من الأعيان والعلماء والممثلين عن كافة الطوائف الذى منح زعامة الثورة تأييدها فى ١٧ يوليو عام ١٨٨٢ لم تقف طويلا أمام منشور السلطان " بعصيان عرابى " الذى دب فى قلبه اليأس فور أن علم به بينما ضعفت حمية جنوده إذ اعتبروا أنفسهم " عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله " مما كان من أهم أسباب هزيمة التل الكبير .

يدفع ذلك الى محاولة لتحرى الأسباب .. أسباب عدم اشتراك الأفندية فى الزعامة السياسية للثورة العرابية إلا من باب ضيق هو باب الضباط فى مجتمع كان هؤلاء قد أحرزوا فيه مكانه ادارية واجتماعية وفكرية ملحوظة مما كان يؤهلهم للاشتراك وبقوة .

لعل أهم هذه الأسباب فى تقديرنا ، ان نسبة عالية من المثقفين ثقافة حديثة انحدرت من روافد غير مصرية ، من الأتراك والأرمن ، على وجه الخصوص فجمعية حلوان المشهورة التى تأسست عام ١٨٧٨ كان أهم زعمائها الباشوات شريف وشاهين وعمر لطفى وراغب ..

وجميعهم من أصول تركية بل أن الأخير من أصل يونانى .

وجمعية مصر الفتاة التى تأسست فى الاسكندرية كان فيها كثرة من العناصر الأجنبية خاصة من اليهود والشوام على وجه الخصوص أديب آسحق تلميذ جمال الأفغانى المعروف وصاحب جريدة التجارة .

ولم يكن غريبا عندما أصدرت هذه الجمعية برنامجها الذى امتلا بالمفاهيم الحديثة ، الفصل بين السلطات ، قانون انتخابى ،المسئولية الوزارية ، استقلال القضاء .. الخ .. لم يكن غريبا أن يصدر هذا البرنامج باللغتين العربية والفرنسية !

سبب آخر : أن المثقفين المنحدرين من أصول مصرية قحة استمروا فى مجموعهم حتى أواخر السبعينات أسرى للوظائف الحكومية ، ولم يكن من المتوقع من هؤلاء أن يخرجوا للعمل السياسى الاباستثناءات محدودة .

سبب ثالث : ان من حملوا لواء الأفكار السياسية الحديثة وسعوا الى ترويجها من الصحفيين كانوا أصحاب الصحف الشامية " الذين نجد عديدا منهم وقد التفوا حول الشيخ جمال الأفغانى وصاروا من اخلص تلاميذه ، ولانكاد نجد من الأفندية المصريين من عرف طريقه الى قهوة " متاتيا " وجلس الى الشيخ المذكور .

فاشهر المصريين الذين جلسوا الى الأفغانى كانوا الشيخ محمد عبد والشيخ عبد الله النديم النديم وسعد زغلول وكان حتى هذا الوقت ينتمى الى جماعة المشايخ فلم يكن قد تطربش بعد !

أخيرا فان نسبة عالية من الضباط المصريين الذين تولوا قيادة الثورة لم يكونوا من الذين تخرجوا فى الأصل من المدارس المدنية الحديثة ، بما فيها المدارس العسكرية ، بل انهم وصلوا الى رتبهم من خلال نظام " الترقية تحت السلاح " ، فقد دخلوا الجيش جنودا ونجحوا من خلال هذا النظام الذى تم التوسع فيه كثيرا على عهد سعيد باشا... تمكنوا من الصعود الى رتب الضباط .

بيد أن ماحدث من تغييرات انتهاء الثورة العرابية وقيام الاحتلال البريطانى للبلاد (١٨٨٢) أدخلت التغيير المتوقع على الزعامة السياسية فى مصر .

تقدم المطربشين :

مصطفى كامل، محمد فريد ، أحمد لطفى السيد . أبرز الزعماء السياسيين فى مصر فى ظل الاحتلال البريطانى ، وكانوا جميعا من المطربشين من خريجى المدارس الحديثة ، الأمر الذى يثير التساؤل كيف حدث هذا التحول خلال ما لايزيد عن عقدين ...

لعل الاخفاق الذى لقيته الثورة العرابية فى مواجهة قوة أوربية استعمارية ، بل أكبر القوى الاستعمارية فى ذلك العصر كان من أهم الأسباب وراء ذلك ..

فقد تبين المصريون أن الثورة التى قادها العسكريون تحولت الى عمل من أعمال " التمرد والعصيان " وان الثورة التى تزعمها وبيانات الخديو، وان المقاومة التى تزعمها المعممون تحولت الى عمل من

أعمال " التهييج والاثارة"على حد تعبير المدعين فى المحاكمات التى عقدت لهؤلاء فى أعقاب دخول قوات الاحتلال الى القاهرة

ولم يبق أمام المصريين من أعمال النضال الوطنى سوى الأسلوب السياسى والتحدث باللغة االتىتجيدها أوربا التى جاءتهم قوات الاحتلال من احدى دولها، ولم يكن يجيد هذا الأسلوب سوى الأفندية ومعلوم ان الحركة الوطنية ضد الاحتلال والتى بدأت بشكل جنينى فى صالون لطيف باشا سليم ، الضابط الذى الذى كان قد قاد المظاهرة المعروفة باسم مظاهرة الضباط فى أواخر عهد اسماعيل .. معروف أن هذه الحركة قد تشكلت بالأساس من الأفندية ، وهى الحركة التى صنعت ما عرف باسم" الحزب الوطنى السرى " وهو الحزب الذى حظى برعاية الخديو عباس الثانى وخرج منه بعد ذلك أغلب زعماء الحركة الوطنية قبل الحرب بمن فيهم كامل وفريد ولطفى السيد .

وتبدو أهمية تنحى الضباط والمعممين عن قيادة الحركة الوطنية وتصدر المطربشين من المدنيين لها من حرص القائمين على الحركة خلال هذه المرحلة على نفى أية صلة لهم بأعمال الثورة ، وانهم قرروا أن يسلكوا سبيل العمل السياسى ، وكان دافعهم الى ذلك حرمان الانجليز من ذريعتهم فى استمرار احتلالهم لمصر .. ذريعة أنهم باقون لوقف أعمال الأضطراب التى تهدد مصالح وأرواح الأوربيين .

فضلا عن ذلك فقد اختارت الحركة الوطنية المصرية بعد نشوئها فى تسعينات القرن أسلوب تدويل القضية فالاحساس بالعجز عن مواجة

القوة البريطانية الطاغية فقد آرتأى المصريون أنه ليس من سبيل سوى استعداء قوة أوربية ، أخرى تكون لها مصالحها الملحة فى اخراج الانجليز ولم تكن سوى فرنسا .

من ثم فان الرحلات التى استمر يقوم بها مصطفى كامل ممثلا لهذه الحركة الى أوربا وفرنسا على وجه التحديد، واتصاله برجال السياسة فيها كانت تعبر عن هذا الاتجاه فى الحركة الوطنية وهو اتجاه لم يكن من الممكن أن يعبر عنه سوى المطربشون .

السبب الآخر لتقدم المطربشين الى الصفوف الامامية ما جرى من تغييرات في صفوفهم وقتذاك

من هذه التغييرات أن الوفرة بين خريجى المدارس المتوسطة منها أو العليا ، مقترنة بتحجيم الادارة الحكومية ، اتباعا لسياسة الاحتلال الساعية الى توفير النفقات .. كل هذا أدى الى عدم دخول عديد من هؤلاء أبواب الوظائف الحكومية ، وهم بذلك قد تحرروا من القيود التى طالما عرقلتهم أو عرقلت أسلافهم فى الفترة السابقة على الاحتلال من الاشتغال بالعمل السياسى .

ويقدم المحامون نموذجا على ذلك ، فقد أدت وفرة خريجى مدارس الحقوق خاصة وانه كان هناك مدرستان .. الحقوق الخديوية والحقوق الفرنسية .. أدت الى وجود عديد منهم خارج " الميرى " ومن ثم جاء اشتغالهم على هذا النطاق الملحوظ فى العمل الوطنى وتصدرهم للحركة السياسية،حتى انناالانكادنجد واحدا من الزعماء من غير خريجى الحقوق

.بيد انه ينبغي التحفظ هنا والتأكيد على الحقيقة بأن عدم اشتغال خريجى الحقوق بالوظائف الحكومية لم يكن السبب الوحيد فى تصدر المحامين للعمل السياسي خلال تلك المرحلة .

السبب الثالث نتج عن انتشار الصحافة السياسية خلال تلك الفترة ، فحظر العمل بشئون السياسة " البوليتيقا " الذى كان ضمن التعهدات التى يقدمها طالب رخصة أصدار الصحيفة حتى يحصل عليها لم يعد قائما .

وكان وجود الاحتلال البريطانى عنصرا أساسيا للتوجه السياسى للصحافة المصرية خاصة بعد أن عمدت سلطات الاحتلال الى تشجيع بعض الصحفيين الشوام الى اصدار صحيفة تدافع عن سياساتها ، وهى المقطم ، فرد بعض الوطنيين على ذلك بتشجيع صحفى مصرى على أصدار جريدة المؤيد ، ولم يمض وقت طويل حتى صدرت اللواء ناطقة باسم الحركة الوطنية الناشئة .

ظهر قطاع جديد من الزعامة السياسية للمطربشين تجسدت فى الصحفيين الذين جاء أغلبهم من خريجي المدارس الحديثة باستثناءات محدودة .

وقد بدأ غلبة طابع الزعامة الجديدة في الحركة الوطنية فى تلك المرحلة من خلال أكثر من ظاهرة ..

فما عمدت اليه هذه الحركة من الاتصال بالدوائر السياسية فى أوربا والسعي للحصول على تأييدها ، لم يكن يستطيعه سوى الافندية الذين

يفهمون طبيعة العلاقات التى تحكم مواقف تلك الدوائر ويتعاملون معها بلغتها .

المطالبة بالدستور الذى كان ركيزة أساسية من ركائز الحركة الوطنية الجديدة ، حتى أنه سارت المظاهرة من المطربشين فى شوارع القاهرة فى صيف عام ١٩٠٨ وقد أخذ يتنادى المشاركون فيها " الدستور يافندينا .. الدستور يافندينا .."

ويبدو الفارق هنا فيما حدث خلال ثلاثين عاما من أنه بينما اقتصرت هذه المطالبة من قبل على رجال جمعية مصر الفتاة وكان أغلبهم من غير المصريين ، فقد أمتدت فى هذه المرحلة لتتحول الى مظاهرات شعبية .

انشاء الأحزاب على النمط الغربى ولأول مرة فى التاريخ المصرى الحديث كان من صناعة الافندية أيضا فباستثناءات قليلة كانت زعامات هذه التنظيمات معقودة للمطربشين .

لعل اهم هذه الاستثناءات تمثلت فى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب " الاصلاح على المباديء الدستورية والشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير اللواء علي عهد محمد فريد و الشيخ علي الغاياتي احد كتاب الحزب الوطني .

بمعني اخر ان المطربشين قد نجحوا في خلال هذه الفترة في كسب المساحة الاكبر من الزعامة السياسية و لكنهم لم يشغلوها كلها وهو ما لم يتاخر كثيرا

الزعامة للمطربشين !

ثورة ١٩١٩ كانت ثورة كل قطاعات الشعب ملاك الاراضي والمثقفون والعمال والفلاحون بيد أن ما يتفق عليه المؤرخون ان قيادة الثورة قد انعقدت للمثقفين وعلى وجه التحديد المطربشين منهم اصحاب المهن الحرة والطلاب والموظفين ، وقد بدا ذلك سواء في العاصمة او سائر المدن بما فيها حواضر المديريات .

اصحاب المهن الحرة خاصة المحامين لعبوا دورا قياديا ، سواء علي المستوي الفئوي حين تعددت اضراباتهم التي عطلت اجراءات التقاضي اوعلي المستوي التنظيمي العام حين تولوا في اكثر من منطقة تنظيم السلطة الثورية مع انهيار سلطة الادارة ..

حدث هذا في اسيوط حين اسرعوا الي تشكيل لجنة للمحافظة علي الامن والنظام اخذ اعضاؤها يطوفون بالشوارع لطمأنة الناس علي حياتهم واموالهم ، وحدث في المنيا حين تكونت لجنة من ثلاثين عضوا اغلبهم من المحامين والاطباءوالتجار وحدث في زفتي حين تألفت لجنة برئاسة محامي هو "يوسف الجندي " اعلنت الاستقلال ورفعت علما وطنيا ، وطبعت منشورا ووزعته في المدينة ، ووصل الامر بهذه اللجنة التي تشكلت اساسا من اصحاب المهن الحرة ان اصدرت جريدة اسمها " الجمهورية" كانت تنشر فيها اخبارها وقراراتها وتعليماتها وتوزعها علي الناس !

يأتي اصحاب الطرابيش من الطلاب بعد ذلك الذين وصفهم

المندوب السامي البريطاني في القاهرة بأنهم "جيش الوفد المتحرك "
ومعلوم ان اول اعمال الثورة قد بدأها هؤلاء حين اضرب ابناء مدرسة الحقوق في اليوم التالي لاعتقال سعد ، ٩مارس ١٩١٩، وما لبثت ان شاركهم طلاب مدارس المهندسخانة والزراعة والطب .
وتتضح فاعلية الحركة الطلابية انها امتدت لتشمل الاقاليم ،وكانت الشرارة الاولي للتحرك الجماهيري في شتي حواضر الاقاليم من الاسكندرية حتي اسوان خرج طلاب المدارس في المظاهرات التي كان يغض الطرف عنها احيانا معلموهم ونظارهم من المطربشين ايضا ،وكثيرا ما كان يصل الامر بهؤلاء الي تحريض طلابهم بل قيادة المظاهرات بانفسهم فيما حدث في جرجا مثلا ! ويتأكد الدور الفاعل لهذة الفئة من المطربشين من تأثيرهم علي قطاعات اخري مما حفلت به التقارير البريطانية.

جاء في احد هذه التقارير انه من ضمن " اعمال الشغب " التي يقوم بها الطلاب سيطرتهم علي الفلاحين وادخالهم في اذهانهم ان سبب الثورة ديني "وانهم سيحصلون علي قطع مجانية من الارض حين تسقط الحكومة كما سيعفون من الضرائب (!)

تقرير آخر جاء فيه ان موظفي شركة البوستة الخديوية اشتركوا في مظاهرات الاسكندرية مدفوعين برغبة الانضمام الي الطلاب وتقارير اخري عديدة ..

اخيرا يأتي من اصحاب الطرابيش الموظفين ويبدو كيف انه حتي

هذا القطاع من اصحاب الطرابيش قد شارك في اعمال الثورة من ان هؤلاء كان محرما عليهم من قبل مجرد الاشتغال في السياسة بالانضمام الي الاحزاب او حتي الكتابة في الصحف . وان هؤلاء قد استمروا في اضرابهم حتي تم تهديدهم بالفصل او "الشطب من سجلات الحكومة " علي حد تعبير الانذار الذي وجه اليهم والحقيقة ان ثورة ١٩١٩ كانت بمثابة التتوج النهائي لزعامة المثقفين ثقافة مدنية للعمل السياسي في مصر فقد احتلوا تقريبا مكانة الصدارة في الاحزاب ؛ وشغلوا اغلب مقاعد البرلمان ؛ وتولوا ادارة الصحف ؛ فضلا عن وجودهم البارز في مقاعد الحكم !

يؤكد ذلك التقرير السري السنوي الذي كانت تبعث به دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة الي وزارة الخارجية في لندن تحت عنوان الشخصيات الرئيسية في مصر Leading Personalities in Egypt

فمن بين ١١٠ من هذه الشخصيات تضمنها تقرير عام ١٩٣٠ لم نجد سوا خمس شخصيات من غير المطربشين؛ واحد فقط بحكم اهميته السياسية هو الشيخ محمود مصطفي المراغي شيخ الازهر السابق ؛ والبقية بحكم مناصبهم ..

الشيخ عبد المجيد سليم المفتي الكبر والشيخ الاحمدي الظواهري شيخ الازهر ؛ فضلا عن الانبا يؤانس بطريرك الاقباط وحاييم ناحوم افندي حاخام اليهود .

اما ال ١١٥ شخصية الباقية فقد كانوا جميعا من اصحاب

الطرابيش ومن سائر القطاعات التي ضمت بعضا من امراء الاسرة المالكة جنبا الى جنب مع الوزراء ورؤساء الاحزاب والصحفيين والنواب المشهورين من زعماء الامة الحقيقيين !

****

حواشي الفصل التاسع

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ج ٣ ص ٣٢٩٩

(٢) د . لطيفة محمد سالم : القوي الاجتماعية في الثورة العرابية ص ٦٧

(٣) د .سمير محمد طه : أحمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية ص ٢٨٧ - ٢٨٨

(٤) د. على شلش : جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩

(٥) لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ص ٧٣ وما بعدها .

(٦) آرثر جولدشميت : الحزب الوطنى المصرى (ترجمة فؤاد دوارة) ص ٧١ ومابعدها .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية .

(٨) د. ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وآثارها .

(٩) نفس المرجع .

(١٠) د. يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى .

(١١) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ .
(١٢) د. عاصم محروس عبد المطلب : دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩
(١٣) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ .
١٤) F.O. 407/211 Leading Personalities in Egypt

الفهرس

****

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠١٥٩/ ١٩٩٦

ISBN 977- 01 - 4980 - 2

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب